هاربون من الجحيم

قصص قصيرة

بهجت درسون الزبيدي

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق

٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:

اللجنة العليا لموسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق

مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

( )

البريد الالكتروني :

WWW.BAINA.COM

العراق:كربلاء المقدسة

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٤ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:

م. زهير الجبوري

هاربون من الجحيم

قصص قصيرة

بهجت درسون رحو

حدث في آمرلي

بعد تحرير مدينة آمرليعلى أيدي القوات المسلحة العراقية والحشد الشعبي وجهات أخرى ساندة، وبعد فك الحصار عنها، والذي استمر لأكثر من شهرين دخلت معهم قنوات فضائية، ووسائل إعلامية أخرى لتوثيق ما جرى في هذه المدينة الوادعة التي تقع على وادي(كور دره) الذي يقسمها إلى نصفين. استقبل أهالي آمرلي بفرح غامر هذه القوات المحررة وانتشرت القنوات الفضائية ووسائل إعلامية أخرى بين الأهالي من أجل التحري عن تفاصيل الأحداث التي مر بها أبناء هذه المنطقة. أحد الصحفيين الشباب الذي يرافقه مصور فوتوغرافي توغلا في المدينة. يؤشر الصحفي الشاب للمصور أن يوثق الدمار الذي حصل داخل هذه المدينة الصغيرة في حين هو يكتب جمل مقتضبة عن مشاهداته في دفتر صغير. أذ كتب الصحفي: مدينة نالها الدمار، والدمار واضح للعيان من خلال القصف العشوائي على المدينة حتى الشوارع أصبحت عبارة عن حفر كبير بصعوبة تسير فيها العجلات المتنوعة في حين أرى وجوها باسمة وتعلو

محياها امارات فرح منقطع النظير بسبب فك الحصار عنهم وتحريرهم من نكبة الدواعش الذين كانوا مطوقين آمرلي من كل جهة.

بعد مسيرة ليست طويلة وصلا إلى السوق الشعبي للمدينة في الحي العسكري الواقع شرق المدينة، إذ نرى الدكاكين مرصوفة صفا وعلى جانب واحد بينما تتوزع بعض (بسطات) الباعة هنا وهناك.

أشار الصحفي إلى المصور لأخذ صورة عامة للسوق، ومن ثم صور أخرى لباعة (البسطيات).اقترب الصحفي من أحد الباعة الذي لا يتجاوز عمره الثامنة، لملاحظة ما موجود في بسطيته ولم يكن فيها إلّا الخضروات.

قال الصحفي للمصور:

خذ لقطة للخضروات والطفل يبيع لأحد الزبائن كما خذ صورة لي مع الطفل والبسطية ظاهرة بكاملها.

أجاب المصور:

- صار. كما تريد.

اقتربت إمرأة من الطفل، وبدأت تقلب باقات الخضروات وتختار منها ما تريده. أخذ المصور هيأة التصوير، بعد معاينة مصدر الضوء كي تكون اللقطة والإنارة مناسبتين.اشترت المرأة بعض أنواع الخضراوات ثم ناولته مبلغا من المال وغادرت المكان قائلة:

- (سلم لي على أمك).

قال الطفل، وهو يرتب باقات الخضراوات:

- (يوصل) الله يسلمك.

بادر الصحفي الحديث مع الطفل قائلا:

- لدي معلومات أكيدة بأنه حدث انفجار قوي في السوق في عام ٢٠٠٧، قام الارهابيون بتنفيذه.من هو من هذه المنطقة شاهد عيان على هذه المجزرة التي حدثت في سوق آمرلي؟

أجاب الطفل بعد تفكير:

- أغلب أهالي المنطقة الناجين من هذه العملية هم شهود عيان على ذلك، ومن ضمنهم والد.. والد..ي.
- أين والدك كي أتحدث معه بهذا الخصوص؟

دمعت عينا الطفل ثم تحدث بصعوبة:

- استشهد قبل فك الحصار عن آمرلي بأيام .

طأطأ الصحفي رأسه ناظرًا إلى باقات الخضراوات، وقال ببحة كادت تخنقه:

- الله يرحمه ..
- أستاذ أبي كان لديه هواية.. هواية حلوة.

- ما هي؟
- يكتب على دفتر بعض الأحداث المهمة.. منها ما حدث في سوق حي العسكري من انفجار كبير.

ثم يخرج من تحت (البسطة) دفتراً غلافه ملون، ومد يده باتجاه الصحفي:

- هذا هو الدفتر.

الدهشة على ملامح الصحفي والمصور.المصور يتراجع قليلا ويصور إعطاء الدفتر للصحفي في أكثر من لقطة متتالية. بدأ الصحفي يقلب أوراق الدفتر ثم نظر إلى الطفل قائلا:

- هذه وثيقة مهمة جدا ممكن نشرها؟ .
- نعم ممكن لكن أهم شيء عندي أن الناس كلهم يعرفون عن هذه المجزرة والجرائم الأخرى التي قام بها الدواعش.

يقترب الصحفي من الطفل ويحضنه، ويمسد على رأسه ثم قال بإصرار:

- سيطلع العالم كله على هذه المجزرة وعلى باقي الجرائم التي ارتكبتها عصابات القاعدة وداعش في العراق .

ارتسمت ابتسامة فرح على تقاطيع وجه الطفل وقال :

- سيرتاح الآن أبي في قبره.. وباقي الشهداء.

رد الصحفي :

- سأنجز قصة مستوحاة من كتابة أبيك في أقرب وقت ممكن.

ودع الصحفي والمصور الطفل، وظلّت أنظاره نحوهما حتى غابا عن مجال الرؤية.

وهذا ما كتبه الشهيد....

لم يكن صباح يوم السبت الموافق السابع من تموز ٢٠٠٧ يوما اعتياديا بالنسبة لي، ولا لأهالي آمرلي أيضا،فأنا تأخرت ذلك اليوم عن موعدي المعتاد لتسويق الخضراوات التي أزرعها في مزرعتي الصغيرة، وأعرضها في السوق على بائعي الخضراوات،والسبب يعود لأنقطاع الماء عن الأرض التي أملكها، إذ بعد مساومات مع جاري طالت أكثر من ساعة وافق على تزويدي بالماء مقابل مشاركته بشراء الوقود(الكازوايل) كي تستمر المضخة بضخ الماء إلى أرضه وأرضي.

بعد المفاوضات هذه لملمت محصولي ووضعته في سيارة حمل(البيك آب) الخاصة بي، وانطلقت عبر الطريق النيسمي بين أرضي وأرض جاري باتجاه المدينة، والمصادفة كانت السيارات الخارجة من البساتين وهي محملة بالمنتوجات الزراعية المختلفة كثيرة، وكانت

تسير ببطء نحو المدينة، ولاحظت في هذه الاثناء صهريج يسير ببطء لا أدري تماما هل سيره هكذا بسبب الحمل الزائد أو بسبب الطريق النيسمي الضيق والمتموج أيضا؟ وفي ضوء ذلك قررت أن أذهب إلى البيت ليغسل أبني الوحيد السيارة بما علق بها من غبار، وثانيا لأتحاشى الزحام والأنتظار طويلا.

كان ابني الوحيد ينتظر قدومي أمام باب الدار، وحال رؤيته سيارتي وهي تدخل الحي أخرج بسرعة أنبوب الماء البلاستيكي الذي يتدفق منه الماء بقوة، وعند اقترابي والوقوف عند الباب وجه أنبوب الماء على الزجاج الأمامي للسيارة، وهو مبتسم، فهو يعرف أنني أخشى الماء، وكأن لدي فوبيا من الماء. ومن خلف زجاج الماء أرسلت له إشارات بترك انبوب الماء ولكنه مازال مبتسما وهو يرش الزجاج الأمامي للسيارة، ولكن بعد صرخة مدوية مني ترك انبوب الماء وابتعد عن باب الدار تاركا إياي أدخل إلى البيت ثم عاد مجددا لرش السيارة كلها بالماء.

أما بالنسبة لأهالي آمرلي؛ فهو يوم غير اعتيادي لأن أغلب الناس في المدن الصغيرة والقرى في أرياف العراق يتجهون إلى السوق للتبضع أو الاتجاه إلى أعمالهم مرورا بالسوق مع أنائهم الذين يحملون

المنتجات المشتراة وعودتهم إلى البيت بينما الآباء يواصلون السير إلى أعمالهم المتنوعة.

كان السوق في ذروة الزحمة عندما دخل الصهريج إلى مدخله من جهة البساتين الواقعة على جانب الوادي (كور دره) حتى استقر في وسطه. وقف الصهريج، ونزل منه السائق الذي التف حوله العديد من الناس مستفسرين عن توزيع النفط الأبيض. أجابهم السائق قائلا:

- احضروا (الجليكانات) وقفوا قرب الصهريج، وسأوزع النفط حين يأتي صاحب الصهريج الذي لن يتأخر.

تجمع الناس حول الصهريج بانتظار توزيع النفط، وبعد أن اطمأن السائق إلى حضور عدد كبير من الناس، اتجه إلى مقهى شعبي مبني كله من قصب على شكل (عرزال) مفتوح من أكثر من جهة. جلس على بساط ملون على الأرض وطلب شايا، شربه ودفع ثمنه ليغادر في سيارة نوع (فيكترا) وقفت قرب المقهى لتنطلق به نحو البساتين بسرعة غير إعتيادية مخلفة غبارًا كثيفا مختلطا بغبار أسود داكن نتيجة انفجار الصهريج الذي حول كلَّ شيء حوله إلى قطع متناثرة مع كتلة نار غطت سماء المدينة بأكملها، ليذهب ضحية هذا

الأنفجار الغادر أكثر من ١٣١ شهيدًا أغلبهم موظفون وكسبة كانوا متجهين إلى أماكن عملهم.

اغتيال أبرياء

استقر قرص الشمس في وسط السماء،معلنا أذان الظهر؛ إذ بدأت مكبرات الصوت تصدح بأصوات المؤذنين بشكل متناغم. كانت الأم على سطح الدار تردد مع نفسها (الأذان) وهي تجس بيديها الملابس المرصوفة على حبلٍ طويل. لملمت الجافة منها ووضعتها في حضنها بينما بقيت قطع الملابس السميكة والرطبة موزعة بشكل غير منتظم على ذلك الحبل.

نزلت درجات سُلم السطح بسرعة، ورأت ابنها مكورًا فوق البساط الملون وعلى ساقيه استقر الكتاب بينما الحقيبة المدرسية بجانبه. كانت حرارة الشمس باهتة لا تمد الجالس أمامها بالدفء الكافي.

- سآتيك بالغداء بعد أن أنهي صلاة الظهر
- كما تحبين يا أمي.

قال تلك الكلمات ومازالت نظراته مشدودة نحو الكتاب. دخلت الأم غرفة النوم ووضعت الملابس الجافة في الخزانة التي هي

قبالة سرير النوم. وقعت عيناها على صورة زوجها. دمعت عيناها؛ فمسحتها بيديها بسرعة كي لا يلاحظ ذلك ابنها. قالت مع نفسها:

الله يرحمك

أخذت السجادة التي السرير وبدأت تصلي. بينما ابنها مازال منهمكًا بالدرس. أنهت الأم صلاتها، وأخرجت من جيب ردائها مسبحة سوداء طويلة، وكان شاهد المسبحة باللون الأبيض، وأخذت تُسبحُ وشفتاها تنطق بكلمات غير مسموعة، وفجأة انفرطت حبات المسبحة وسقطت حبة الشاهد البيضاء على السجادة. أطلقت الأم صوتا :

- اللهم اجعله خيرًا.

لملمت حبات المسبحة وانطلقت نحو المطبخ،واضعة حباتها والخيط في إناء صغيرة ثم خرجت ووضعت الإناء فوق إحدى درجات سُلم السطح وقالت:

انفرطت حبات المسبحة

أجابها الابنُ:

- هاتيها يا أمي؛ لأنظمها بخيط جديد.
- لا تشغل نفسك عن الدراسة يا ابني، سأسوي الأمر بنفسي

بعد صلاة العصر.

ثم اتجهت نحو المطبخ مجددًا، ووضعت في صحن صغير (رزًا) وفي صحن آخر (مرقًا) ورغيفي خبز في (وعاء مستدير له حوافّ) كبيرة. أحسّت بأن عينيها ما زالتا تدمعان، مسحتهما مرة أخرى بردن دشداشتها الداكنة. سارت نحو باحة الحوش ووضعت الصينية قبالة ابنها، قائلة:

- تناول غداءك يا ولدي ثم أدرس.

أجابها وعيناه على الكتاب:

- سأكمل دراستي بسرعة كي أذهب إلى بيت خالي
- أدرس الآن وسنذهب سوية يوم الجمعة
- أريد أن أراه اليوم
- ولماذا؟
- كي يؤمن لنا النفط الأبيض.. أحتاج أن أدرس في الليل، والليل بارد جدا.
- ومن أين لنا بثمنه؟
- سأعمل في عطلة نصف السنة.
- اتصل به عبر جهازه النقّال إن أردت ذلك.

- بيتهم قريب فلماذا اتصل به بالنقال؟ سأذهب وأعود بسرعة.
- أعرفك جيدًا يا بني، إن ذهبت لن تعود قبل غروب الشمس، وأنت على أبواب امتحانات نصف السنة، أريد أن تبقى متفوقًا على زملائك، وهذه أمنية أبيك رحمه الله.

كما تحبين يا أمي.

بيت هذه السيدة،يقع خلف الشارع الرئيسي لقضاء الشرقاط والذي تمرُّ فيه السيارات القادمة من خارج القضاء،وغالبيتها سيارات خاصة بنقل الأرزاق لجنود فوج حماية المصافي النفطية،إضافة الى سيارات الحمل التي تأتي من المزارع القريبة والمحاذية لنهر دجلة، وكذلك سيارات أهالي القضاء، كما أن هناك جامع ومجموعة من الدكاكين من ضمنها دكان لتبديل دهن السيارات .

مع رفع الأذان في الجامع وقفت سيارة نقل أرزاق فوج حماية المصافي النفطية قرب دكان تبديل دهن السيارات، وأيضا نزل سائق صهريج نفط وقف قرب الجامع لإداء الصلاة،وفي هذه الأثناء بدأ أولياء العوائل في الحيّ يعودون إلى بيوتهم محملين ببعض ما استطاعوا شراءه من مواد غذائية لعوائلهم، وكان من ضمن العائدين الى بيته

شقيق السيدة الذي يسكن قريبا من بيتها.

في هذه الأثناء استهدفت عصابات داعش سيارة نقل الأرزاق وذلك بان فتحوا النار عليها من أسلحتهم الخفيفة والمتوسطة حتى بدأت تحترق. تجمع الناس حولها لإطفاء الحريق، وعمّت المكان فوضى كبيرة وبدأت السيارات تتوقف وينزل السائقون منها لإطفاء الحريق ومساعدة الآخرين.

خرج شقيق السيدة من داره، مسرعاً ليستطلع الأمر. اتصل على شقيقته لكنها لم تنتبه إلى نغمة النقّال لكثرة اللغط والأصوات غير المفهومة. كانت لحظات عصيبة على الأم والابن، وقد وجهت لنفسها اللوم لأنها لم تقبل بذهابه إلى دار خاله، جلست على حافة السرير، حاضنة ابنها كطفل رضيع، وبعد لحظات سمعا أصوات الفزع والهلع تنطلق من خلف الجدران وقد عمّت المكان كلّه،كانت أصوات النساء والأطفال تشق عنان السماء ثم تلاشت تلك الأصوات فجأة مع دوي انفجار كبير،فقد فجر الإرهابيين هذه المرّة الصهريج، وتناثرت الأجساد،واختلطت مع محتويات الدكاكين، وتطايرت أجزاء كبيرة من أبواب البيوت وشبابيكها التي تقع خلف الدكاكين.

تناثرت قطع الملابس المبللة في السماء في حين طارت حبات

المسبحة وتشظت في كبد السماء. اختلط لون السماء بسواد كثيف جرّاء ذاك الأنفجار المهول، فكانت دقائق معدودة مزجت بين صخب ذلك الأنفجار وكتل اللحم المتناثرة في كل مكان، إذ قطعت أصواتًا كانت قبل قليل تنعم بالحياة.

اللحظة الحرجة

لم تعد الشرقاط كما كانت،هذه المدينة التي أسمها آشوري محوّر من (شيركاتا) وتعني (مدينة الذئاب)كانت قلعة حصينة ضد الغزاة؛ بل أصبحت كباقي المدن الأخرى التي دنستها عصابات داعش منذ دخولهم إليها، إذ أصبح يومها ثقيلا، تمرُّ الساعات ثقيلة على أبناء هذه المدينة الذين يحبون اللعب والرياضة، والشعر الذي هو ملاذ المحبين والعاشقين عند أبناء المناطق الريفية العراقية عموما، وهذه المنطقة خصوصا.

في ظل يوم ثقيل ومريع كهذا أخذ مجموعة من المراهقين الصغار في الشرقاط يتجمعون كعادتهم أمام أحد الدكاكين الصغيرة المتناثرة في الحيّ، بعد تأدية واجباتهم الملقاة على عاتقهم من قبل أهاليهم؛فهذا يبيع محصوله الزراعي،وذاك يحرس زرعه، والآخر يشتري الحاجات الضرورية لبيته... بينما الرابع يجلس في الدكان بدلا من أبيه المُعاق بسبب انفجار لغم كان على قارعة طريق مزرعتهم،أما الخامس

فيصطاد السمك مع أبناء عمومته وإخوانه.

قال ابن صاحب الدكان:

- يا شباب، اليوم لعبة العراق مع الأردن.

أجابه السماك قائلا:

- غدا اللعبة يا أثول!

رد أبن صاحب الدكان بسرعة:

- أنت الأثول.. اليوم الإثنين الموافق (١٢/ ١/ ٢٠١٥) اللعبة بين العراق والأردن وان شاء الله نفوز.

طأطأ السماك رأسه ثم قال:

- والله بسبب الدواعش نسينا حتى الأيام.

ضحك حارس المزرعة وأردف قائلا:

- سنشاهد المباراة اليوم بالليل بمضيفكم يا سماك.

أكد الأصدقاء كلام حارس المزرعة، واتفقوا على اللقاء في مضيف السماك قبل المباراة بساعة على الأقل.

مع غروب الشمس، رعدت السماء، وبدأ المطر ينزل رويدا رويدا ثم فاضت الأرض وأصبحت موحلة، وبالكاد يسحب الشخص قدميه من الوحل العالق في الحذاء.. هكذا غرقت الشرقاط

وقرى (اسديرة)،التي تقع على الضفة الأخرى من نهر دجلة، ولكن حماسة الأصدقاء لمشاهدة المباراة لم يمنعهم من السير مسافة ليست بالقصيرة تحت المطر من أجل مشاهدة المباراة بشكل جماعي،وقد لفوا رؤوسهم باليشماغ، وأجسادهم (بالفراوي) التي هي جزء من الزي الشتوي لأبناء القرى العراقية والبدو أيضا.

أصوات حفيف أوراق الأشجار بدأت تزداد بشكل ملحوظ، بل طقطقة أغصان تلك الأشجار المثمرة وغير المثمرة الموزعة داخل البيوت قد تصاعدت مع ازدياد سرعة الرياح. ركض كل من ابن صاحب الدكان وحارس المزرعة وبائع المحصول نحو سياج بيت يقع قبالة بيت السماك، ومع تطاير رذاذ المطر من كل جهة، التمعت السماء بالبرق. قال ابن صاحب الدكان:

سنأكل (الكمأ) هذه السنة

أتمنى أن تكون خشنة لأنني لا أحب (الكمأ) الناعمة.

ضحك بائع محصول المزرعة قائلاً:

الناعم من الكمأ أعطني إياه أنا سآكله

تعالت قهقهاتهم مع بروق السماء، وظهر في الجهة المقابلة السماك وهو يقف تحت طارمة بيته ويدعوهم للدخول.

تطاير الوحل على ملابسهم وهم يحاولون الركض باتجاه بيت السماك، تعثر أحدهم بسبب تطاير الوحل على وجهه ثم واصل الركض نحو الباب الكبير الذي يتوسط الدار.

أمام مدخل باب الاستقبال، وعلى ضوء (النيون) شاهد الاصدقاء ما حلَّ بهم، وبدأت ضحكاتهم تملأ المكان، قال السماك:

اللهم أجعله خيرًا !!

استغرقت ترتيبات تحضير المضيف فترة جاوزت الساعة متنقلين بين سطح البيت وغرفة المضيف،وذلك لترتيب (الدش)،وتحضير مستلزمات الضيافة من (المكسرات) وسيد المائدة القروية (حب عباد الشمس) فضلاً عن ذلك (فستق عبيد)، مع عصائر معلبة متنوعة الألوان والاطعام.

كان مضيف بيت السماك كبيرًا وطويلا، في وسطه مدفأة كبيرة جلس الجميع حولها منتظرين أن يعلن المعلق الرياضي بدء المباراة،والترقب واضح على وجوه الجالسين كوجوه الذين يؤدون امتحانا في المدرسة؛ وجوه قلقة، مرتابة من هول ما ستقرره الأسئلة من مصير كل واحد منهم.

ازداد القلق أكثر فأكثر مع إعلأن بدء مباراة العراق مع الأردن؛

لأن هذه المباراة ستحدد مصير الفريق العراقي.

بدأت الأنفعالات على وجوه المتابعين للمباراة تزداد مع مرور الوقت، بل كانت بعض الافواه تطلق صيحات هستيرية غير راضية عن لعب بعض أفراد الفريق العراقي لاسيما بعد مرور ربع ساعة من اللعب؛ إذ أضاع الفريق العراقي هدفا محققا، تعالت الصحيات مجددا منددين بإضاعة الفرصة، قال ابن صاحب الدكان بنبرة حزينة:

ياولو.. ضاعت الفرصة الذهبية لمنتخبنا.

ثم لطم رأسه بكفه، أجابه السماك:

بعد اللعب بأوله.

قال ابن صاحب المزرعة متأففًا:

إضاعة الفرص هذه كلها بسبب التمريرات الخاطئة، لاحظتم لاعبي الفريق الأردني يلعبون أحسن من فريقنا.

أجاب رابعهم:

والله صدقت يا ابن العم.

ظهر الامتعاض على وجوههم بشكل واضح بعد انتهاء الشوط الأول، لأن النتيجة هي التعادل السلبي، وزاد النقاش حدّة بينهم بسبب هذه النتيجة غير المرضية، والوجوم على محياهم لكن تغيرت

سحناتهم بعد إعلأن المعلق الرياضي بداية الشوط الثاني، كانت نظراتهم مشدودة نحو شاشة التلفاز، وازداد امتعاضهم لأن مدرب الفريق العراقي، لم يجر تبديلا مع بداية الشوط الثاني، ولكن الارتياح بدأ على ملامحهم بعد عشر دقائق من الشوط الثاني؛ إذ تم تبديل أول لاعب من الفريق العراقي؛ وزاد التشجيع أكثر فأكثر للفريق العراقي مع حماس منقطع النظير، وعلل السماك ذلك بقوله:

راح ينشط الهجوم وان شاء الله راح تتغير النتيجة لصالحنا.

أيد الجميع كلام السماك إلا ابن صاحب الدكان، الذي قال:

نحتاج تبديل آخر حتى يصير الهجوم أقوى.

استمرت متابعة المباراة بين صمت مطبق وبين صيحات هستيرية مع هجمات أفراد الفريق العراقي التي لم تثمر عن أي هدف.استمرت المتابعة هكذا حتى الثلث الأخير من المباراة، وفجأة في الدقيقة (٧٧) من زمن المباراة سجل الفريق العراقي هدفه الوحيد، لتنتهي المباراة بهذه النتيجة، خرج الجميع في أزقة الشرقاط حاملين العلم العراقي، والسعادة على محياهم، ليصعدون على أعلى نقطة في الشرقاط كلها، ألا وهو خزان الماء رافعينَ فوقه العلم العراقي وهم في غاية الفرح والسعادة .

في الصباح ألقت المفرزة الأمنية التابعة للدواعش في الشرقاط القبض على هؤلاء المراهقين،وأمام خزان الماء،وجرت محاكمتهم على يد ما يسمى بالمحكمة الشرعية، وأعلنوا إعدامهم بالرصاص؛ بسبب عدم ولائهم لدولة الدواعش، ولأن ولاءهم كان للعراق، وأثناء تنفيذ الحكم ردد هؤلاء المراهقون: موطني.. موطني.. اختلطت كلمات النشيد بصوت طلقات الكلاشنكوف مع تناثر قطرات دمائهم فوق العلم العراقي.

شجاعة الخلاص

أدخلوه في غرفة ضيّقة، عفنة، مظلمة؛ وجد نفسه فيها مع رجلين قد أخذ التعب منهما مأخذاً كبيراً، بحيث لم يلتفتا إليه وهو الزائر الليليّ الجديد .علّق (عبود الأسمر) بعد أن اعتدل قليلاً في جلسته ونظر بعين واحدة إلى القادم الجديد الذي اقتحم عليهم زنزانتهم قائلا:

- ها.. كملت.. (الجدر ما يتركّب إلا على ثلاث)..

ضاع الجدر وضاعت الحجارة وضاع العدد يا عبود.. أجابه زميله (جلال الحيدر من دون أن يعير أيّ اهتمام للزائر الحائر.

على نور ضوء خافت تبيّن من بعيد وجه الزميل الجديد وقد بلغ به التعب مبلغاً كبيراً؛ بحيث لا يمكنه التعليق أو الإجابة على أيّ سؤال.

جلس (سالم القسّوم) على طرف بساط قديم مهترئ وهو يتألّم من شدّة ما عاناه من تعذيب على يد أزلام الدواعش المجرمين،فقد ضبطوه يتحدث بالموبايل وهذه جريمة كبرى عندهم، وعلاوة على

ذلك وجدوا في جيبه علبة سكائر ضاعفت من جرمه وجعلته في مهب ريح الدواعش العفنة. وبسرعة عجيبة حصل التآلف المطلوب الذي لا بدّ منه بين الثلاثة، فكلهم ضحايا الإجرام الداعشي وعليهم انتظار عقابهم الذي لا يعرفون ما هو على وجه التحديد.

لم يستطع (سالم القسّوم) تحمّل تلك الليلة التي قضّاها في هذه الزنزانة بفعل آلام جسده التي لا تهدأ، ولم يتمكّن زميلاه في الزنزانة إبداء التعاطف الكافي معه لفرط ما بهما من مآسٍ وطعنات في الجسد والروح، إذ تعرّضا لأقسى العقوبات الداعشية، فهم منذ يومين لم يأكلا أو يشربا أي شيء. ولم يكونوا يسمعون كثيراً من الكلام والحركة حولهم فاستنتجوا أنهم في منطقة بعيدة عن مركز مدينة الفلوجة، لكنّ (سالم القسّوم) قدّر بحكم حساسيته المكانية العالية ومعرفته بطبيعة الهواء حين خرج قبل قليل لقضاء حاجته أنهم قريبون من (حي الجولأن)، فشعر بغبطة غامضة جعلته يحسن التفكير بالأشياء؛ فهو يعرف هذه الأماكن جيّداً لو أتيح له الهرب إلى أقرب نقطة خارج هذا المكان المهجور.

فكّر مليّاً قبل أن يخاطب زميليه بجملة أثيرة هي مثل شعبي معروف قائلاً:

- لكما لو للذيب؟

بصوت واحد أجاباه:

- يخسأ الذيب..

تشجّع هنا كي يفصح لهما عن خطّته للهرب معهما وقد أقنعهما بأنّه يشعر أنه يعرف المكان تماماً، وبمجرد الخروج مسافة أمتار قليلة سيكون بوسعهم الخلاص.

اتفقوا على التفاصيل كلها؛ ولا شكّ في أن شجاعة القسّوم وجرأته وخبرته في الحياة كفيلة بإنجاح خطته في الهرب، وحين ظلّ زميلاه يصرخان كي يأتيهما أحد ؛دخل عليهم حارس مسلّح ليعرف ما الأمر، فحدّثاه عن زميلهما القسّوم بأنه يكاد يختنق ولا يريد سوى أن يخرج قليلاً إلى الخارج كي يستطيع التنفّس، فعنده ضيق شديد في التنفّس لا يسمح له بأخذ الهواء الكافي في هذه الغرفة المعدومة الهواء تقريباً.

حدّق فيهما مليّاً واقتنع بإخراجه لوحده خارج الزنزانة التي كانت داخل مبنى شبه مهجور وسط مساحة صحراوية بدت منقطعة، وحين سحب القسوم من يده كي يخرجه إلى الخارج انقضّ (القسوم) على الحارس وسحب سكيناً كان يحملها قرب مخزن إضافي لسلاحه الكلاشنكوف، وطعنه على الفور طعنة موت، وكان الظلام قد خيّم

على المكان ممّا ساعدهم للهرب بعيداً عن المكان، وبعد مسيرة قليلة نظر القسّوم إلى الأرجاء كلّها كي يعرف الاتجاهات وأمرهم أن يتّجهوا يميناً للدخول إلى الأطراف الجنوبية لحيّ الجولأن، وكلّما تقدّموا أكثر طمأنهم أنّ الأمور طيّبة وهم في الطريق الصحيحة، حتّى بلغوا بيوتاً متفرقة على أطراف الحيّ؛ وأشار لهم أن يتوجّهوا إلى بيت صغير أشبه بكوخ يقع بعيداً عن بعض البيوت المتفرقة، وأخبرهم أن هذا البيت ليس فيه سوى امرأة يعرفها هي أم حمود، وقد قتل الدواعش أبناءها الثلاثة لأنهم كانوا ينتمون إلى سلك الشرطة قبل أن يحتلّ داعش المدينة، وهي ناقمة عليهم كثيراً؛ ولا تفعل طوال ليلها ونهارها سوى الصلاة والدعاء الذي لا ينقطع أن يهلك الله هؤلاء المجرمين الطغاة.

طرق القسوم الباب طرقاً خفيفاً وسرعان ما سألت:

- من هذا؟
- أنا سالم.. سالم القسّوم يا أم حمود.. هربنا من داعش وهم يطاردوننا الآن.
- لعنهم الله.. ادخلوا يا أولادي..

دخلوا وهم يعتذرون للمرأة التي رحبت بهم وكأنّ أولادها الثلاثة عادوا إليها، وقدّمت لهم ما تيسّر لها من الطعام والشراب،

وفرشت لهم مطارح مهترئة هي كل ما تملك بعد أن صادر الدواعش كل ممتلكاتها إثر إعدام أولادها، وأخبرتهم بأنها ستنقذهم ولو كلّفها ذلك حياتها.

تركتهم في كوخها الصغير وذهبت إلى أخيها الناقم على داعش لأنهم جلدوه أمام الناس لأنه مرتدّ بحسب ادّعائهم،وطلبت منه أن يأتيها فجراً كي يأخذ الرجال الثلاثة إلى منطقة آمنة، يمكنهم فيها الهرب خارج نفوذ هؤلاء القتلة، قبل أن يأتي الصباح وتنتشر مفارزهم في كل مكان بحثاً عن الهاربين الثلاثة وقد ارتكبوا جريمة جديدة بضرب الحارس بالسكين، خرج بهم في طرق لا يعرفها سواه وتمكّن من إيصالهم إلى منطقة آمنة، وأوصاهم ببعض الوصايا المهمة فضلاً عن معرفة القسوم بمخارج مدينة الفلوجة ومداخلها وتركهم في رعاية الله.

امتلأت المدينة بمفارز الدواعش بعد ساعة فقط من خروج الثلاثة بعيداً عن منطقة الخطر، وكان أول بيت يتعرّض للتفتيش هو بيت أم الشهداء، وحققوا معها بعد أن لاحظ أحدهم آثار أقدام غير طبيعية خارج البيت،وحيث كانت قوية وواثقة من نفسها وكارهة لهم أشدّ الكره فلم تأبه لهم مطلقاً، لذا لم يتمكّنوا من الحصول على أية

معلومة منها، وما أن خرجوا وابتعدوا حتى أطلقت زغرودة وصلت عنان السماء حين شعرت لحظتها أنها انتقمت لأولادها وهزمت الدواعش.

تمرد جماعي

كثورٍ هائج دخل نميرُ بيته؛ إذ لاحظت ذلك أمه التي كانت تعد طعام الغداء. اتجه نمير نحو غرفته بسرعة،يفتش عن شيء ما.وقفت أمه على عتبة باب غرفته متسائلة:

عن ماذا تبحث يا (ولدي)؟

مازال نمير يعبث بدولابه الذي يحوي كل متعلقاته، أجابها وهو منهمك بالبحث:

- عن المسدس يا أمي.
- ماذا تفعل به؟

التفت إليها متحدثا:

منذ دخول الدواعش مدينتا (الرطبة)، وأنا غير مرتاح؛ لحملهم السلاح ليلا ونهارًا، ولابد لي من حمله أيضا لحماية نفسي.

هل لديك عداوة مع أحدهم؟

ليست القضية عداوة يا أمي بل قضية غرباء دخلوا المدينة،

ولابد من أخذ الحيطة والحذر منهم.

الحقيقة يا (وليدي) خبأته في (صرّة ملابسي)، خشيةً من المداهمات والتفتيش.

أعطيني إياه حتى أعود إلى عملي.

- يا (ولدي) أنت اليوم لست طبيعيا،لا تأخذ المسدس معك اترك حمله ليوم آخر.
- لا أتحمل السير في المدينة بلا سلاح يا أمي، وأنا أراهم يسرحون ويمرحون وبيدهم أسلحتهم التي يرهبون بها الجميع .

خضعت الأم لرغبة ولدها فهي قاربت الخمسين عاما من العمر لإصرار ابنها على حمل المسدس، وأعطته إياه، وأردفت قائلة:

- بالله عليك يا ولدي لا تتهور في استخدامه.

بعد أن أخذ المسدس من يد أمه خرج من البيت مسرعًا، وهو ينظر يمينًا ويسارًا وهو لا يعرف إلى أين يتجه. سار إلى نهاية شارع الحيّ، و قال في سره:

- لا بد إني سأراه في سوق المدينة، هذا الذي أهانني أمام زملاء العمل وأمام الناس المارّة.

واصل الحديث مع نفسه:

هذا الذي أصر على إهانتي أمام الجميع، وأكد إهانتي يوميا لا لشيء إلا لكوني اختلفت معه ومع آرائه التي لا تمت للدين بصلة.

ثم استدرك قائلا:

قال صديقي :منذ دخوله الرطبة مع ما يسمونهم الدواعش،وهذا يبحث عنك وعن مكان عملك، وأكد لجماعته بأنك تنبذ أفكارهم وطروحاتهم. احذر منه يا نمير، والأفضل أن تترك الرطبة إلى مكان آمن.

تنهد قليلا ثم قال لصديقه:

- لن أترك الرطبة ولا أترك مصدر رزقي لا بسببه ولا لأي سبب آخر.

نمير وهو سائح في أفكاره هذه،وإذا به وهو في منتصف سوق المدينة يرى تجمعات هؤلاء وهم يمشطون السوق ويدققون في وجوه أبناء المدينة،لمح غريمه وهو محاط بمجموعة منهم.اقترب منهم،وأصبح قبالة غريمه الذي رماه بنظرة استعلاء مخاطبا إياه قائلا:

- ماذا تفعل هنا يا كافر؟ ألم تكن في مقر عملك؟

رد نمير بكبرياء:

- جئت لأصفي حسابي معك.

رد الداعشي باستهزاء، وهو محاط بجماعته :

- أنا هنا أمثل دولتي (الدولة الإسلامية) التي ستصبح قريبا دولة الخلافة، وأستطيع أن أقرر باسمها حتى بدون محكمة يا كافر .. يا زنديق.
- أنا لست كافرًا ولا زنديقا.. كلّ أهل الرطبة يشهدون لي بذلك.
- نحن نقرر ذلك وليس الرعاع من أمثالك .
- من هم الرعاع يا هذا؟! نحن أناس خلقنا الله على الفطرة السليمة.
- نحن نقرر إن كنت كذلك أو لا .

بحركة مدروسة أسقط محفظته على الأرض مع سحب المسدس من تحت إبطه موجها إياه في وسط جبينه مع اطلاقة بسرعة البرق. تناثرت الدماء على الذين بقربه مع توقف المسدس بعد تلك الطلقة، ووقع في فخهم .

قُبض على (نمير حمد العجمية) من اللجنة الأمنية التابعة للدواعش،وأودع السجن لمدة سبعة أيام مع شتى أنواع التعذيب ثم قرر قاضي المحكمة اللا شرعية إعدامه في مكان مقتل صاحبهم.

كعادتهم في هكذا قرارات يجندون مقاتليهم ليبثوا خبر الاعدام

مع إلزام القريبين من المكان لحضور تنفيذ القصاص حسب ما يدعون، وليكون المنفَّذ به عبرة للآخرين.

قرأ قاضي المحكمة قرار الاعدام على مسامع مئات من أهالي الرطبة، وبعد ذلك نُفذ به الاعدام بالرصاص على أيدي رهط منهم. ثم غادر القاضي ومن معه المكان بسياراتهم المسروقة من دوائر الدولة بينما أهالي الرطبة ومن ضمنهم أقرباء العجمية حملوا جثته باتجاه مقبرة المدينة.

دفن (العجمية) وسط استياء أهالي الرطبة الذين شيعوه ودفنوه وحزنهم العميق على مقتله؛ لأنه يُعد من شباب المدينة المتنورين، ومن أصحاب الخلق الرفيع الذي يشهد له القاصي والداني بذلك..

خيَّم على ملامح أهالي الرطبة الحزن العميق والصدمة الكبيرة لهم جميعا، وكأن اعدامه شرارة جاءت على الاخضر واليابس، ولهذا كانت جنازته عامرة بأكثر من ١٢٠ شابا ورجلا وشيخا.

عَدَّ الدواعش دفن نمير بهذا العدد الكبير خروجا واضحا لأهالي الرطبة على تعاليم دولتهم المزعومة لأنهم دفنوا كافرا وزنديقا وقاتلا لرجل من رجالاتهم حسب بيان القاضي الذي نطق به على مسامعهم، وهذا لا يجوز بنظر محاكمهم المزعومة؛ فقرروا معاقبة جميع الذين شاركوا في دفن نمير بعد اعدامه مباشرة.

استنفروا جميع مقاتليهم لتطويق مقبرة المدينة والقاء القبض على المشاركين في الدفن، لكن الأهالي قاوموهم واشتبكوا بالأيدي معهم، وحاولوا الفرار من المقبرة باتجاه بيوتهم المتناثرة هنا وهناك ثم استكانوا بعد اطلاق الرصاص الحي بصورة عشوائية أصابت بعضهم وقيدوهم بالحبال والسلاسل متجهين بهم إلى قلب المدينة وربطهم من جديد على أعمدة الكهرباء عراة، وجلدهم بشكل متواصل.

قرر باقي أهالي الرطبة تخليص أبنائهم المحتجزين والمربوطين على أعمدة الكهرباء عبر استخدام الاسلحة المتبقية لديهم،وفعلا نجح أسلوب مناورتهم للدواعش الذين تركوا المكان بسرعة، وفتح أهالي الرطبة قيود أبنائهم على أصوات زغاريد النساء.

بعد أيام عدة جرت عملية اعتقالات عشوائية وواسعة لأبناء الرطبة بسبب تمردهم ومقاومتهم،وفي ضوء هذه الاعتقالات غير المبررة، قررت مجموعة من عوائل الرطبة النزوح بشكل جماعي إلى كربلاء المقدسة؛ ليحلوا ضيوفا على أبناء عمومتهم هناك، وبذلك أعلنوا تمردهم الجماعي على ما قاموا به هؤلاء الأوغاد.

هجوم مباغت

الناس صائمون في شهر رمضان المبارك وحرارة الجو عالية جدا، ومدينة آمرلي محاصرة من جهات عدة منذ أكثر من شهرين، وقد قُطِع عنها الماء والكهرباء، ومع هذا فان أغلب الناس يزاولون أعمالهم في هذا الوضع الشاق.

اعتاد أبناء المدينة أن يحرسوها ليلا ونهارا بعد الحصار الذي فرضته عليهم عصابات داعش، وبعد اجتماع موسع في جامع (الإمام الصادق) في أحد أحياء المدينة دعا له العميد الركن المتقاعد (خالد محمود خليل آمرلي)، بمعية وجهاء المدينة وشيوخها وبعض عناصر الأجهزة الأمنية ومنهم آمر فوج الطوارئ الخامس العقيد مصطفى، واتفق الجميع على أن العميد (خالد) هو من يضع الخطة للحفاظ على المدينة ومنع الارهابيين من تدنيسها، وأن يكون العقيد هو المسؤول على أمن المدينة وتوزيع المهام على العشائر الموجودة.

بعد أن انتهى العميد الركن (خالد) من وضع الخطة وتبليغ

العقيد مصطفى بها، عُقِدَ اجتماع آخر في مقر مديرية شرطة آمرلي بحضور العقيد (ناظم) مدير الشرطة في آمرلي والمقدم (محمد صمد)، ووجهاء عشائر المدينة؛ إذ وزّعت المهام على العشائر للحراسة والدفاع عن المدينة عند تعرضها لهجوم الدواعش.

في الساعة الخامسة مساءً،أي قبل موعد الإفطار بساعتين أو أكثر بقليل، بدأ القصف بالهاونات ينهال على الناس الآمنين في مناطق متفرقة من المدينة من عصابات داعش.فانتفض العميد الركن خالد آمرلي من مكانه، وأكد لضيفيه وهما من أبناء عمومته؛ مدير بلدية آمرلي، و أخوه في استخبارات شرطة آمرلي:

هذا القصف بالهاونات يعني تمهيدا للهجوم على المدينة.هؤلاء الدواعش يدعون أنهم ينفذون الشرع وهم يحاربون المسلمين في شهر رمضان المبارك، وهذه مفارقة ما بعدها مفارقة.

استدرك العميد الركن خالد وهو يخاطب ضيفيه قائلاً:

- المهم لابد لي من تبليغ العقيد مصطفى لحث العشائر على الاستعداد لصد الهجوم.

مع استمرار القصف على مناطق متفرقة من آمرلي بدأت تتقدم صوب المدينة دبابة استولى عليها الدواعش في معارك سابقة،

ووضعوا شعارهم في مقدمتها، وبين مدّة وأخرى تطلق قذيفة باتجاه الساتر المحيط بالمدينة الذي يحتمي به أبناء العشائر.

ومن خلف الساتر يتابع ملازم شرطة (وسام) حركة الدبابة وهي تتقدم نحوهم. يتصل عبر جهاز الموبايل بالعقيد مصطفى، ويطلب منه توفير إسناد بالطائرات السمتية من أجل معالجة الموقف.

وعند اقتراب الدبابة من الساتر حاول ملازم (وسام) منعها من التقدم من خلال معالجتها بقذائف (أر بي جي سفن)من أكثر من مكان، وعندما لاحظ تقدمها قام بعبور الساتر باتجاه الدبابة من أجل منع تقدمها.

ركض بطريقة (الزكزاك) من أجل تفادي نيران العدو حتى وصل إلى نخلة وحيدة في فضاء مفتوح. إحتمى الملازم وراءها ومن ثم جهز الـــــ (ار بي جي سفن).

نظر إلى السماء على أمل أن يرى التعزيزات الجوية ولكن السماء صافية بدون أي مؤشر على ظهور الطائرات. اتصل بالعقيد مصطفى مرّة أخرى، واستفسر عن التعزيزات، أجابه قائلا:

- ستتأخر الطائرتان..

رد الملازم قائلا:

- سأعالج الدبابة التي تقصف المدينة لوحدي.
- لماذا؟
- اعتقد إذا تقدمت الدبابة أكثر ستحدث كارثة في المدينة
- أرجو معالجة الأمر برويّة ولا تتهور.
- تمام سيدي.
- في أمان الله
- تسلم سيدي.

بعد أن أنهى حديثه، جهز القاذفة وأخرج جسمه من وراء النخلة وأطلق القذيفة التي جاءت في وسط الدبابة تماما وبدأت النيران تلتهمها، ولكن سائق الدبابة استهدف الملازم برشاشته وجاءت الإصابة تحت القلب مباشرة. سقط الملازم وسام، ولكنه وضع قذيفة أخرى في الأنبوبة بصعوبة بالغة، واطلقها مصوبا على الدبابة التي ازدادت النيران كثافة في داخلها،ولكن سائقها نزل على الأرض موجها رشقة من الرصاص(صلي)،إلى جسد ملازم وسام الذي أصبح مثقبا من كثرة رمي الاطلاقات عليه، وانهزم السائق الداعشي باتجاه المدرعة التي تساند الدبابة، وارتمى في داخلها لتتجه صوب تكريت حيث مقر إدارة عملياتهم، لكن مازال هناك قناص

من الدواعش يرمي على الساتر القريب من جثة الملازم وسام.

يلحظ ذلك العقيد مصطفى الذي يراقب الموقف، ويعطي التعليمات لمعالجة ذلك، والنيل من هذا القناص.وفي هذه الاثناء سُمع صوت من بعيد لطائرات سمتية، ينظر العقيد مصطفى إلى السماء واضعا يده على جبينه لمشاهدة الطائرتين اللتين تحومان فوق سماء المعركة، وينتبه كذلك الذين معه وتبدو بشائر الفرح على محياهم.

رنَّ الجهاز النقال للعقيد مصطفى؛ وكان الاتصال من أحد الطيارين الذين كانا يحلقان فوق سماء المعركة، قال العقيد مصطفى للطيار :

- أتمنى أن تعالج فلول الدواعش الذين يجرون أذيال الهزيمة باتجاه تكريت، وهناك قناص قريب من الساتر أتمنى أن تقضي عليه فورًا، لأن لدينا جثة شهيد في أرض الحرام لابد من انتشالها.
- تمام سيدي سنعالج الموقف.

الأنظار مشدودة باتجاه فلول الدواعش المسحوبة ونحو القناص الذي يرمي رميات متقطعة باتجاه أي شخص يظهر خلف الساتر. يتحرك العقيد مصطفى على طول خط الساتر لمحاولة معالجة القناص

الذي لم يسكت صوت سلاحه حتى بعد انسحاب مدرعاتهم وآلياتهم الاخرى.

طائرة سمتية اتجهت فوق فلول الدواعش وهي ترقب سيرهم في حين طائرة أخرى تحلق فوق أرض الحرام على ارتفاع منخفض لاحظ ذلك القناص الداعشي، فوجه سلاحه نحو الطائرة، لمح الطيار خروج طلقة القنص،ارتفع قليلا ثم صوّب صاروخا اتجاه المكان وتطايرت في السماء أجزاء من جثته وقطع من سلاحه، في حين تصاعدت الاتربة والغبار من فلول الدواعش المنسحبة والطيار الذي يطير فوقهم يواصل رمي الرتل بصواريخ متعددة.

ينطلق العقيد مصطفى بسرعة ومعه عدد من أبناء آمرلي باتجاه جثة الملازم وسام رافعين الجثة على أكتافهم باتجاه مدينة آمرلي مع انطلاق تكبيرات صوت المؤذن لإعلأن إفطار هذا اليوم.

أبناء مدينة آمرلي حاملين جثة الشهيد في حين نظر العقيد مصطفى باتجاه السماء، وإذ بالنجوم تزين سماء آمرلي، وهي تلألأ بشكل لم يَرَها هكذا من قبل.

مجزرة في مدينة البرتقال

في سوق بعقوبة القديم، وقبالة المصرف يقع محل (حسن علي عباس جواد سادة المهدية)، الذي لم يتجاوز العقد الرابع من عمره، ويلقب بـ(حسن القصاب)؛ فقد اختلط الشيب في بعض أماكن لحيته ليضفي عليه وقارًا، وتراه منهمكا في عمله بين تقطيع اللحم ومراقبة الميزان،والحديث مع الزبائن مستفسرًا عن اللحم الذي يريده أكان لحم عجل أو لحم خروف فضلا عن نوع اللحم الذي يفضلونه، وهل هو لنوع معين من الطعام؟ كالكبة أو الدولمة أو للمشويات ..الخ. إذ يتحرك (حسن القصاب) بخفّةٍ يساعده في العمل كُلٌّ من ابن اخته وابن أخيه اللذين لا يتجاوز عمر كُلٌّ منهما العاشرة.

يطالع الداخل إلى المحل صورة كبيرة بالألوان هي صورة ترمز للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. أخذ أحد الزبائن طلبه من القصاب مخاطبا إياه قائلا:

- انتبه إلى نفسك (مؤشرًا على الصورة). أنت في بعقوبة..

يعني هناك من لا يتقبل هكذا صور معلقة في محلك!!

أجابه ضاحكا:

- أنا شيعي أنا سني، لا توجد تفرقة بيننا.

ناول الزبون مبلغ اللحم قائلا:

- أنت صاحب موكب وهذه الصورة تشير إلى أنك شيعي، وهذا عند المتشددين يُعَدُّ استفزازًا. أنصحك مرّة أخرى في رفعها ووضعها في صدر بيتك. وقد أعذِرَ من أنذر!!

خرج الزبون في حين كان ابن أخت (حسن القصاب) ينظف أمام المحل بالماسحة البلاستيكية، أما ابن أخيه،فقد أخرج فخذ عجل لتعليقه (خطّاف تعليق)؛ فلم يستطع رفع الفخذ لثقله، وهرع (حسن القصاب) لمساعدته قائلا:

- يا ابن أخي نادني مرّة أخرى كي أساعدك، ففخذ العجل ثقيل، وليس مثل فخذ الخروف.

هزَّ ابن أخيه رأسه دلالة على الموافقة. في هذه الاثناء وقفت سيارة حديثة نوع(بي. إم. دبل يو)، بيضاء اللون، ونزل منها شاب في مقتبل العمر. شاهده القصاب وخرج باتجاهه مرحبا:

- أهلا وسهلا بـ (سالم هاتف) صاحب أكبر موكب في ديالى.

- وبـ(المهلي).

(حسن القصاب) ممسكا بيد سالم وهما يسيران باتجاه المحل:

- أي والله وهلا بابن الغالي أشهر بزاز في بعقوبة.

نادى (حسن القصاب) على ابن أخيه قائلا:

- (شايات جيب لنا شايات).
- صار عمو.

جلس سالم على كرسي قبالة منضدة صغيرة في ركن المحل قائلا:

- عندي ضيوف من الجنوب أريد تشكيلة من اللحم: لحم مثروم خاص بالكباب، وثلاث أو أربع كيلوغرامات من حبل الظهر للتكة، ومعلاق خروف تازة.
- تدلل عيني. (أشلون الوالد)؟

وضع ابن أخ (حسن القصاب) استكانة الشاي أمام سالم في حين أعطى استكانة الشاي لعمه الذي يقف قبالة صديقه؛ إذ أجاب قائلا:

- الحمد لله. الوالد زين، البارحة رجع من الزيارة ومعه ضيوف .
- تقبل الله. ويا هلا بكل الضيوف.
- منا ومنكم صالح الأعمال.

كأن (حسن القصاب) يرى السيارة لأول مرة. استدرك قائلا:

- على الخيروالبركة هاي السيارة مشتريها جديدة.
- اي والله قبل اسبوع اشتريتها

في هذه اللحظة مرّت سيارة اسعاف بسرعة كبيرة وهي تطلق أصواتا متتالية، وكان الشارع مزدحما بالسيارات. وقف سالم متابعا حركة الناس وهي تنظر باهتمام إلى سيارة الاسعاف. وقال موجها حديثه إلى حسن القصاب:

- كلما أرى سيارة اسعاف أتذكر الجرائم التي قام بها تنظيم القاعدة كالقتل أو الخطف أو الذبح ونحر الرؤوس. أقول متى سنتخلص من هذه المصيبة؟!
- صدقت يا عزيزي سالم. كل يوم نسمع بالعديد من القصص من قتل وذبح للعشرات في هذا المكان أو ذاك المكان. قبل أيام خطفوا عشرات العمال من منطقة النهروان كانوا ذاهبين إلى عملهم في منطقة معامل الطابوق، وقتلوهم جميعا بدم بارد. كانت مجزرة بمعنى الكلمة.
- نعم سمعت بهذه المجزرة، وسمعت أيضا عن قتل ابن أحد الأشخاص واتصلوا به ليعلموه بمكان جثة ابنه، ولما ذهب

إلى هناك حضن جثة ابنه وبدأ يبكي بحرقة على وحيده، وإذا بهم قد فخخوا الجثة التي انفجرت على الأب في لحظة احتضانه لها، وتناثرت جثتي الأبن والأب معا حتى أصبحتا أشلاءً في العراء.

جهز (حسن القصاب) طلبات صديقه،وعلامات الأسى واضحة على محياه، وأعطى الطلبات لأبن أخته ليضعها في سيارة صديقه سالم الذي خرج وخلفه حامل الطلبات وحسن القصاب الذي قال له:

- خلينا نشوفك، لا تنقطع عن زيارتنا.
- إن شاء الله. أقرب فرصة أزورك.
- أمانة اتسلم على الوالد.
- يصل سلامك ان شاء الله.

في هذه الاثناء مرّت سيارة اسعاف أخرى تسّمر سالم في مكانه وقال:

- (هاي شيخصلها اليوم).

تجمهر الناس على رصيفي الشارع ينظرون إلى سيارة الاسعاف التي تحاول أن تتخلص من الزحام عبر حركة السير المتعرج لتجتاز

طابور السيارات في حين أن أحد المارة تبرع ليبعد السيارات عن مسار سيارة الاسعاف. قال (حسن القصاب) لصديقه سالم:

- والله هذا اليوم أبدا مو طبيعي. أتمنى أن يعبر على خير.

ابتعدت سيارة الاسعاف عن المكان، وبدأ الناس يتفرقون رويدا رويدا.

فتح سالم صندوق السيارة ووضع الطلبات في الصندوق، ومع غلق الصندوق بقوة حدث دوي كبير أدى إلى انفجار سيارته فسقط على الأرض وهو غارق بدمه، في حين ارتطم حسن القصاب بقوة بحائط المحل جراء عصف الأنفجار أما ابن اخيه وابن اخته فقد تناثرت بعض أجزاء من جسديهما بعيدًا عن المكان، وغطى المكان الدخان مع توالي الأنفجارات التي هزّت مدينة البرتقال.

نقطة انقلاب

الذكريات الأليمة مثل جرح عميق لا يندمل بسهولة..ما حفزني على هذا القول عبارة قرأتها قبل أيام وهي أن(الذاكرة هي حفريات داخل مجرّات السنين ترتبط وتترابط مع كل تلك الخيوط المتراصة بنسيج لا يمكن تفكيكه)، هكذا حدث نفسه أحد الناجين من موت محقق يوم ١٢ حزيران ٢٠١٤، بعد أن شاهد مناظر مريعة لجثث شباب بعمر الورود، تتناثر على حافة نهر دجلة المحاذية للقصور الرئاسية في مدينة تكريت، فضلا عن تلك الفوضى التي عمّت المدينة بحيث تخبط كثير من الناس ولا يعرف أحدهم أين يتجه، ولاسيما أولئك الذين هم من مدن عراقية أخرى سواء من وسط أو جنوب أو شمال الوطن.

أغلب تلك الجثث هي لأناس كانوا معه في معسكر (سبايكر) حين كانوا يتلقون تدريبا أو منتسبين يشرفون على إدارة المعسكر.

كانت مشاهد هذه الجريمة تختلط في مخيلته مع فكرة صعوبة

النجاة ولاسيما أن قواه منهارة جدا، ويتنفس بصعوبة وهو غاطس في ماء النهر؛ إذ يحاول بين فترة وأخرى إخراج رأسه لأخذ كمية من الاوكسجين ليستعيد تنفسه لثوان معدودة، ثم يعيد رأسه في الماء كي لا يشاهده أحد افراد عصابات داعش ويصوب النار عليه. والأدهى من هذا وذاك لاحظ رهطا منهم يمشطون حافة النهر بسياراتهم المكشوفة الموزعة عليها أسلحة متوسطة، تطلق الرصاص بشكل متواصل (صلي) كي لا ينجو أحد أبدًا، كما نصبوا مفرزة فوق الجسر، وحين يلاحظون أية جثة تطفو فوق النهر يصوبون الرصاص باتجاهها كي يتأكدوا من نهايتها.

إنه ابن قرية (اسديرة) التابعة لقضاء الشرقاط، وقريته تقع على حافة نهر دجلة، يعرف خطورة النهر لاسيما في الربيع عندما يفيض،مشكلا تيارات تسحب الشخص لمسافة بعيدة في رمشة عين. كان يخاف أن ينزلق في إحدى تلك الدوامات، وهو غاطس داخل النهر بسبب ضعف بنيته، فوزنه لا يزيد عن ستين كيلوغراما، ولكن إذا كان فوق ماء النهر يستطيع ان يعالج الأمر بشيء من التفكير.

والصعوبة الاكبر التي يعانيها تتمثل في اتخاذه القرار الأخطر أن يسبح عكس التيار، لأنه يريد أن يقطع النهر باتجاه قريته اسديرة التي

تبعد عن تكريت مسافة ١٢٠ كم تقريبا، لأن قريته تقع بالضبط قبالة قضاء الشرقاط ويفصلهما نهر دجلة.

قال ابن اسديرة مع نفسه: لابد من العثور على قصب كثيف قرب الجرف حتى أستطيع أن أستعيد قوايَّ ومن ثمَّ مواصلة السباحة، لكن حظه العاثر منعه من التفكير بهذه الخطة فأصوات ورشقات الرصاص مازالت تصل مسمعه،وتقترب بشكل ملحوظ من حافة النهر.

في تلك اللحظة تذكر أهله وأصدقاءه وخطيبته التي تنتظره بفارغ الصبر لإتمام حفلة العرس، وتمنى أن يكون الآن على اليابسة ليطمئنهم على حاله؛ لأنهم بالتأكيد قد عرفوا المجزرة التي حدثت؛ إذ أسروا أكثر من٢٠٠٠جندي وقادوهم إلى القصور الرئاسية في تكريت،وقاموا بنحرهم هناك، وفي مناطق أخرى رمياً بالرصاص ودفنوا بعضًا منهم وهم أحياء؛ فهي مجزرة يندى لها جبين الإنسانية، وأكيد عدّوه ضمن عداد الشهداء، فضلا عن ذلك سيعملون جاهدين على تتبع أخباره من خلال الاتصالات مع كل معارفهم في (بيجي) أو (الصينية) أو حتى (تكريت) أو(العلم)... وقد نجح بعض الجنود من محافظات عراقية مختلفة الهروب من المجزرة إلى مدينة(العلَم) التي

كانت صامدة آنذاك، والتي يفصلها نهر دجلة عن مكان المجزرة، وابن اسديرة واحد من الناجين.

قطع أفكاره تجمع السمك حوله، اذ حاول إبعادها بيده لكنه انتبه إلى أن أية حركة تصدر منه قد يستدل عليه الدواعش ثم يقع فريسة لهم؛ لذا قرر أن يكون فريسة للأسماك أرحم من أن يكون فريسة لهؤلاء الارهابيين.

بدأ (ابن اسديرة) يفقد قواه وشعر أن التعب يسيطر على مفاصل جسده كلها، لكن عزاءه أن الضوء داخل النهر أصبح خافتا، وماء النهر أصبح أكثر برودة من السابق،وهذا يعني بأن الليل قد خيّم على المكان؛ إذ استمرت الاسماك تنهش وجهه ولاسيما في منطقة الأنف الجزء الأبرز من جسده بينما باقي جسده تغطيه الملابس السميكة وقدماه يحفظهما الحذاء الجلدي. أصبح جسده أكثر ضعفا وكاد أن يُغمى عليه. في هذه اللحظة تذكر المباراة التي عقدها مع ابن الشرقاط وابن السفينة، مفادها من سيبقى في النهر فترة أطول سيحصل على لقب البطل ويتناول الغداء في أحسن مطعم كباب في الموصل، وكان الحكم هو صاحب (القارب) المرابط قرب جسر السفينة، وبالفعل حدثت المباراة في يوم ربيعي، وكانت المياه طينية بسبب فيضان نهر

دجلة.

حصل ابن أسديرة على اللقب، وأكل الكباب في أحسن مطعم في الموصل، ونتيجة هذه المباراة حصل فورا على حافز أكبر لمواصلة السباحة نحو حافة النهر.

أخرج رأسه من النهر وفتح عينيه وإذا بالظلام والصمت يعمان المكان، تنفس الصعداء، ورمى جسده على حافة النهر، ولأول مرة يشم رائحة الدم، وضع يده على وجهه لامس مادة لزجة تسيل على وجهه ولاسيما من أرنبة أنفه. ثم بدأ يصعد حافة النهر زحفا إلى أن وصل إلى الاعلى، وشاهد لأول مرة بعد ساعات أضواء بعيدة تتلألأ أحس بدفئها، وأحس بأن الحياة دبت في روحه. سار مع حافة النهر صعودا باتجاه الشرقاط واسديرة.

وصل إلى سمعه من بعيد صوت نباح كلاب اتخذ منها والأضواء الخافتة دليلا لسيره. بدأ يبتعد عن حافة النهر رويدا رويدا، واصل سيره، وأصوات نباح الكلاب تزداد كلما أوغل السير بعيدا عن حافة النهر، وفجأة ظهرت الكلاب وهي تحيط به وتحاول أن تقفز نحوه، قرفص على الأرض ولملم بعض الحجارات.

في هذه الأثناء استكانت الكلاب في مكانها مع مواصلة النباح،

وظهر رجل ملثم رافعا بندقيته، ومخاطبا ابن اسديرة:

- من أنت؟
- أنا دخيل عندكم.
- وصلت يا ابن العم. (بس) لازم أعرف من أنت حتى أطمئن. أنت تعرف الجو مكهرب.
- حقك يا عمي. أنا من قوم (الصحن) من (أسديرة).
- والله والنعم...

أخفض الرجل الملثم بندقيته، ومن ثم سار مع ابن اسديرة باتجاه المنزل. قال الرجل الملثم:

- أنا راعي غنم..أعرف قوم الصحن (زين)؛ لأن لهم فضلٌ كبيرٌ برقبتي. أكيد أنت جوعان؟
- والله يا عمي من الصبح ما ذقت أي شيء.
- (تبشر.. يخسأ الجوع).

بعد ما تناول ابن اسديرة الطعام، قال محدثا راعي الغنم:

- من هو من قوم (الصحن) الذي قدم لك خدمة؟
- أني راعي غنم كما قلت لك، وصاحب حلال؛ كنت أبحث عن أغنام أشتريها، وفعلا اشتريت أكثر مما كنت أتوقعه،

وكان طريق سيري يمرُّ في وسط قرية اسديرة،وتعطلت سيارتي،والمصلح(الفيتر)قال لي تحتاج سيارتك الى(تورنجي) حتى يصلح عطلها، وبعد شراء الأغنام لم يبق في جيبي أي فلوس، وقلت لصاحب التورنا عمك حسن (أبو عبدالله) ذلك؛ فضحك، وقال ولا يهمك، صلح العطل بجهاز التورنا، واخذها الفيتر وركبها في مكانها، وصارت السيارة أحسن من قبل. رجعت إلى أبي عبدالله اشكره على موقفه هذا. قال لي بالحرف الواحد: إذا تحتاج (فلوس) أعطيك. قلت له: كفيت ووفيت .

- المهم لازم اطمئن الأهل، وأبشرهم بنجاتي من المجزرة.
- أنت خذ قسطا من الراحة... وسأوصلك بـــ(البيكم) إلى اسديرة عن الطريق النيسمي (الترابي)، وإذ صادفنا واحد منهم نقول له سنبيع الغنم بالموصل.
- لماذا لا أبلغ أهلي وهم يأتون ليأخذوني إلى اسديرة وأنت تبقى مع حلالك؟
- الدنيا مواقف يا ابن العم ولابد من رد الجميل عاجلا أم آجلا، وخير البر عاجله.

- بارك الله بيك وبأمثالك.

سرح ابن اسديرة بفكره بعيدا،وتذكر بطل رواية (خراب العاشق) للروائي حمد صالح ابن قرية (اجميلة)، القابعة على كتف نهر دجلة في الشرقاط: (تعالي زينة. تعالي أدخلي النهر. هكذا مثلي تماما. فالماء ليس باردا. دجلة الآن دافئة ونحن في عز الشتاء. يجب ان تكون دجلة الآن دافئة. دجلة ليست نهرًا صغيرًا، إنها بالأحرى دمعة دافئة تتميز بمذاق خاص طالما انتظرته ولكنه صعب المنال)، انتفض ابن اسديرة من هذه الأفكار التشاؤمية التي بثها بطل الرواية، وراح يحلم بعرسه من جديد.

هاربون من الجحيم

بعد أن حدثت جريمة سبايكر يوم الخميس الموافق ١٢ حزيران ٢٠١٤، والتي راح ضحيتها أكثر من الفي جندي عراقي من محافظات عراقية عديدة، كان لمجموعة مكونة من عشرة أشخاص حظاً وافراً للاختباء في هيكل مهجور وسط بيوت متناثرة هنا وهناك قريبة من حي القادسية في تكريت، وبعيدا عن انظار الدواعش، إذ تبضعوا بأشياء أساسية كالماء والعصائر والحلويات التي تسد جزءً من رمقهم، والمدخنون منهم اشتروا علب السكائر أيضا، وجاء هذا نتيجة نصيحة اسداها أقدمهم في الخدمة العسكرية.

استطلعوا الهيكل المهجور من الداخل،وكان من طابق واحد فيه ثلاث غرف كبيرة وملحقاتها، ومطبخ صغير، وجدران البناء من الداخل غير مصقولة، وأرضية الهيكل عبارة عن مخلفات البناء ممزوجة بالرمل.

تتراوح أعمار العشرة بين العشرين والخمسين سنة، في حين

هيأتهم تتباين بين ضعيف وطويل وبين سمين وقصير إلاّ واحدا منهم فهو ضعيف البُنية ويتميز بقصر قامته. وهو أقدمهم في الخدمة العسكرية وقد غطى الشيب شعره بكثافة. تحدث معهم بجدية:

الكثير الكثير من زملائنا راحوا ضحية الفكر الداعشي المتزمت،وهم شهداء مع الأنبياء والأولياء والصديقين إن شاء الله، وإن أردنا النجاة من هؤلاء لابد من إتباع السلامة العامة والتعليمات التي سأتلوها على مسامعكم. هل اتفقنا يا شباب؟

هزَّ الجميع رؤسهم دلالة على الموافقة. قال أقدمهم في الخدمة العسكرية بعزم:

- أولا نضع اجهزة النقّال على الصامت لكي لا يكشفنا رنينه، وأكيد أن مفارزهم قد تصل هنا آجلا أم عاجلا. ثم إذا تحدثنا في النقذال نتحدث بهمس؛ عملا بالمثل الشعبي (للحيطان آذان)، والآن علينا أن نجري مكالمات مع أهالينا لنطمئنهم على حالنا، ثم نبدأ بحراسة المكان من خلال مجموعات تتوزع على الجهات الأربع، وبعد ذلك نبحث عن من ينقذنا ويخرجنا من هذا المكان .

قال قصير القامة والضعيف البنية:

- لديَّ قريب في الحلة يعرف شخصا من العلَم، ما رأيكم أطلب منه الاتصال به كي ينقذنا، لأن العلَم لا تبعد عن تكريت أكثر من ربع ساعة بالسيارة، وإذا كان لدينا (حضّ) ينقذنا بأسرع وقت ممكن.

رد عليه أقدمهم في الخدمة العسكرية بفرح:

- فكرة جيدة. اتصل به الآن .

(العلَم) أو كما تسمى (الخرجة) هي الأخرى مدينة صغيرة تابعة لمحافظة صلاح الدين، وقد وصل الدواعش إلى مشارفها؛ إذ حاصروها من أكثر من جانب، وفي إحدى جوانبها لا يزيد بعدهم عن مئتي متر؛ ولهذا قام أبناؤها بعمل مفارز لصدِّ أي هجوم تتعرض له مدينتهم، ومن الذين شاركوا في صدِّ تلك الهجمات ضمن المفارز المرابطة على أطراف المدينة والمتعددة، هو جاسم عبدالله الجبوري الذي له علاقات واسعة مع أبناء الوسط والجنوب من ضمنهم أحد أبناء الحلة الذي كان قريبه محاصرا في تكريت.

رن هاتف جاسم الجبوري، فتح الخط متحدثا:

- أهلا بابن الحلة
- وأهلا بجبور العلم ..أعلم أن الوضع غير مريح لديكم،

ولكن المسألة مسألة حياة أو موت. لدي قريب عالق بهيكل في حي من أحياء تكريت مع مجموعة آخرين. أتمنى انقاذهم من الارهابيين.

- أرسل لي رقمه للتواصل معه، وسأعمل كل جهدي لإنقاذه والذين معه .
- شكرا جزيلا. سأرسل لك رقمه برسالة. الله يحميكم. مع السلامة.
- مع السلامة.

أجرى جاسم الجبوري اتصالاته مع أحد أبناء تكريت وهو (إسماعيل العلي)، الذي يمتلك سيارة نوع(كيا)لنقل المواد والمعدات الزراعية والعاملين في البساتين المتوزعة في مناطق القريبة من تكريت. أتضح أنه موجود في داخل منطقة العلم. التقى جاسم به في داره بعد عودته من واجبه في المفرزة. قال إسماعيل العلي له :

- أنا استطلع المنطقة بعد ذلك نتفق على صيغة لإخراجهم من هناك. الآن سأتجه نحوهم مباشرة.

لم يقتنع جاسم بكلامه، وتوقع بأنه سيتنصل من هذا الذي كلفه به. اتصل بسائق أجرة من تكريت، وأبلغه بوجود هؤلاء في الهيكل،

وقد أجابه سائق التاكسي قائلا:

- هؤلاء يقيمون مفارز ويسيرون في المنطقة، والآن هم منتشرون، ولكنهم عند الظهيرة ينسحبون لحرارة الجو العالية. فالأفضل ننتظر انسحابهم غدًا عند الظهيرة، ونقلهم إلى العلم في تلك المدّة.

بعد مدّة وجيزة جاء إلى جاسم الجبوري اتصال من إسماعيل العلي، وقال له الكلام نفسه. تأكد من صحة المعلومة وطلب من سائق التكسي وصاحب سيارة الكيا الحضور في فترة الظهيرة غدا لينقلوا العالقين في ذلك الهيكل.

في تلك الليلة التي أصبحت أطول ليلة في حياة العالقين في الهيكل أخذ أقدمهم في الخدمة العسكرية يتفقد حراسة كل مجموعة، وتحدث معهم عن أسلوب الخروج غدا ظهرا في سيارة الأجرة و(الكيا)؛ إذ ستسير السيارتان ببطء من أمام الهيكل ولابد من ركوب الجميع بلمحة البصر حتى لا يثيرون الشكوك. كما أكد على أن أصحاب الاجساد الضعيفة وعددهم أربعة يركبون التكسي بينما الباقي وهو من ضمنهم يركبون السيارة (الكيا)، وفي حالة توقيفهم من قبل أية مفرزة فان الجميع يذكر بأنهم عمال بساتين يعملون في

بساتين (الخرجة) وليس (العلم) حتى تكون لهم مصداقية؛ لأن أهالي هذه المناطق يطلقون عليها اسم (الخرجة).

منذ الصباح الباكر رأت المجاميع التي تحرس الهكيل حركة لتجمعات الدواعش في المنطقة،وهم يتنقلون بالسيارات الحكومية المسروقة ولاسيما سيارات نوع (البيك آب) حاملين أنواعا من الاسلحة الخفيفة والمتوسطة. استمرت هذه الحركة حتى آذان الظهر، وبعدها بدأت تختفي تلك المجاميع، ثم ظهرت سيارة أجرة صفراء قديمة وأخرى نوع (كيا) قادمتان من حي القادسية بين الواحدة والآخرى مسافة مئة متر تقريبا، وعند وصولهما الى الهيكل خرج أربعة منهم، وسارت بهم بسرعة أكثر فأكثر ثم اقتربت (الكيا) التي صعد فيها أقدمهم في الخدمة العسكرية، وجلس السمين جدا قرب السائق بينما الأربعة الباقون صعدوا في حوض سيارة (الكيا) ثم أسرع السائق متعقبا سيارة الأجرة.

سارت السيارتان باتجاه حي الجامعة نحو الجسر الصغير المؤدي إلى الخرجة (العلم) كانت الشوارع فارغة إلا من بعض المارّة هنا وهناك. نظر أقدمهم في الخدمة العسكرية باتجاه الجسر، وقد كان فارغا تماما. ترنح الجسر تحت عجلات السيارتين كأن هناك مطبات.

أسرع سائق الأجرة أكثر فأكثر فازدادت المطبات، وحاول سائق سيارة (الكيا) اللحاق به، لكنه ابتعد كثيرا عنهم. اتصل سائق (الكيا) إسماعيل العلي مخاطبا إياه:

- اتجه نحو سيطرة رقم (٧٠) ينتظرنا هناك(أميَّة جبار)،وجاسم الجبوري لإستلام الاخوان.

ردَّ عليه سائق الأجرة:

- أنا باتجاه سيطرة (سبعين) من الطريق النيسمي للبساتين.
- تمام. نحن وراءك يا عزيزي.

قال إسماعيل العلي لأقدمهم في الخدمة العسكرية:

- هذه المرّة الأولى التي أحس بأن هذا الطريق طويل كطريق بغداد / البصرة..
- والله نفس الإحساس يا (أبو حقي).

اقتربت السيارتان من سيطرة السبعين مخلفة غبارًا كثيفا؛ وإذا برشقات متواصلة من الجهة المقابلة للبساتين تتوجه نحو السيارتين، وتصيب العجلات وبعض أجزاء الهيكل الخارجي للسيارتين،كادت (الكيا) أن تنقلب بفعل عدم سيطرة (أبو حقي) على مقود (الكيا) لإرتطامه بالزجاج الأمامي.

حاولت سيطرة السبعين معالجة الموقف من خلال توجيه النيران نحو المتسللين من عصابات داعش. ساد صمت للوهلة الأولى ثم تصاعدت أصوات احتكاك بقايا العجلات الخاصة بالسيارتين بأسفلت الشارع معلنة ضربات كضربات طبول الحرب التي تشي بانتصار محقق.

متوالية التحريم

بعد دخول الارهابيين (الدواعش) إلى بعض مدن ومناطق العراق في الثلث الأول من شهر حزيران ٢٠١٤ بدأت كثير من الأمور تتعقد بخصوص أهالي تلك المدن والمناطق، وبدأ الضيق يكدِّرُ حياتهم التي تحولت إلى جحيم، ولاسيما بعد النكبات التي طالت بعض الأقليات والطوائف التي كانت تعيش بوئام مع الأقليات والطوائف الأخرى في كثير من المدن.

أهالي الشرقاط التابعة لمحافظة صلاح الدين فيهم كثير من المثقفين وحاملي الشهادات الجامعية العليا فضلا عن الذين يحملون شهادة البكالوريوس والدبلوم الذين يزداد عددهم يوما بعد يوم؛ فمنهم من هو خريج جامعة الموصل، أو جامعة تكريت، أو جامعة كركوك.

وبعد شبه توقف للحياة في القضاء فإنَّ أغلب أبناء الشرقاط والقرى المجاورة ولاسيما المثقفين منهم يذهبون إلى السوق للتبضع والاطمئنان على بعضهم، ومن ضمن هؤلاء أستاذ (خلف) المدرس

في إعدادية الشرقاط. كان كل يوم يزور السوق للتبضع، وكذلك ليعرف أخبار أصدقائه، ويجلس في دكان أحد أقربائه الذي يتوسط سوق الشرقاط ويلتقي ببعض أصدقائه يتذكرون الأيام الخوالي وأيام الدراسة تحديدا في جامعة الموصل.

بقي أستاذ خلف أشهرًا عديدة على هذه الحالة حتى في شهر رمضان المبارك الذي تُعد الحركة فيه مشقة كبيرة على الصائم خصوصًا في فصل الصيف، ولاحظ اختفاء بعض الأصدقاء وعدم مشاهدتهم في سوق القضاء،وعرف السبب بأنهم لم يستطيعوا التأقلم مع أسلوب هؤلاء الدواعش الذين فرضوه على الناس ومن ذلك لبس النقاب للنساء، وتحريم شرب السكائر، وإطلاق اللحية ونتف الشارب.. الخ،ولهذا تركوا هذا المكان بحثا عن مكان أكثر حرية وديمقراطية.

أكد أستاذ خلف في قرارة نفسه أنَّ ما فعله جمع من أصدقائه كان عين الصواب، ولو كان بيده لترك الشرقاط ولذهب إلى مكان آخر، لكن والدته المقعدة وزوجته المريضة اضطرتاه صحتاهما المتدهورة إلى البقاء والعناية بهما.

خرج من دكان قريبه ساهما بعد أن وصله خبر إصابة أحد أصدقائه بطلق ناري اطلقته إحدى مفارزهم اللعينة المنتشرة قرب النقاط المحاذية للأماكن التي لم يدنسوها بعد تهريبه عبر الوادي.

سلم عليه أحد الطلاب الذين درسهم منذ مدّة طويلة، ردّ عليه السلام قال طالبه:

- كيف أنت يا أستاذ خلف؟

ردَّ عليه و إمارات الحزن واضحة على وجهه:

- الحمد لله
- ما بك يا أستاذ؟ أراك على غير عادتك!

لا تشغل نفسك. قل لي أنت أين حلَّ بك الدهر؟

- تخرجت في كلية الحقوق العام الماضي.

اقترب منه أكثر وهمس بإذنه:

- أستاذ.. لقد صار التحريم عندهم مثل شرب الماء .. كل يوم يحرمون شيئا قبل ذلك كفروا نصف المجتمع.

تنهد أستاذ خلف، وقال هامسًا:

- هؤلاء كالدمى، هناك من يحركهم من وراء الكواليس، وإن شئت قل هم كالبيادق يحركهم الملك وحاشيته..
- الصراحة أستاذ أنا فكرت بالهروب من هذا المكان وأتطوع في صفوف (الحشد الشعبي) كي أقاتل هؤلاء الأوغاد.

اقترب أستاذ خلف منه أكثر، وقال بصوت مهموس:

- وأنا لو كنت مكانك لاتخذت القرار نفسه، لإستعادة حريتي وإنسانيتي المفقودة.

في هذه الأثناء تمرُّ مفرزة أمنية للدواعش، وينظر أستاذ خلف وطالبه باشمئزاز نحو تلك المفرزة. ينتبه أحد أفراد المفرزة لما فعلاه،وتستدير سيارتهم المسروقة من دوائر الدولة العراقية في الشارع استدارة سريعة كادت أن تعمل حادثة سير مروعة مع صاحب سيارة بيك آب يعمل في السوق، إذ استقرت بعد ذلك سيارة المفرزة قربهما. نزل أفراد المفرزة الأمنية وتوجه مسؤولهم نحو أستاذ خلف قائلا:

- ما هذا التجمع في السوق؟ كان الأجدر بكما أن تكونا في الجامع لعبادة الله قبل صلاة الظهر لا أن تتسكعا في الشارع.

رد عليه أستاذ خلف بجرأة :

- أسمع، إن كنت مسلمًا فعلاً فعليك أن تؤدي تحية الإسلام أولاً؟ ثانيا ليس لمدرس مثلي درّس أجيالاً من الطلاب أن يتسكذع في الشارع، وثالثا إن هذا هو أحد تلاميذي وكان يسأل عن أستاذه الذي لم يرهُ منذ زمن طويل. أي يرد له ما في رقبته من دين بالسؤال عن أحواله. ورابعا: ليس مثلك من يعلّمني ديني أو يعلّمني صلتي بربي. وخامسا أنتم لم

تحترموا آداب الطريق وكدتم أن تصطدموا بسيارة مواطن هي مصدر رزقه الوحيد.

همس أحد المرافقين في أذن مسؤول المفرزة الأمنية مؤشرا نحو بنطال أستاذ خلف. هزَّ المسؤول رأسه ثم أردف قائلا:

- لا يحق للرعاع مجادلة الأخوة في (دولة الخلافة). وأنت لم تطبق اللباس الشرعي الذي يعاقب عليه الشرع، فإزارك طويل جدا وهذا مخالف لشرعنا، ولهذا نحن عندما نطبق الشرع تسقط عنا كل التكاليف الشرعية لأننا دائما في حرب مع أعداء دولتنا.
- هذا هراء يا هذا!!!
- ماذا قلت؟!!
- هذا هراء يا هذا!!!

ابتسم مسؤول المفرزة الأمنية ابتسامة صفراء، وقال بتجهم:

- أنت متهم بمجادلة الأخوة في (الدولة)، وإهانة أعضاء مفرزتنا وعقابك سيكون عسيراً. لكن سأرحم بحالك، وأكتفي بجلدك في الشارع.

يتدخل الطالب صارخاً بصوت عالٍ:

- هذا ظلم .. هذا ظلم

على صوت الطالب تجمع كل من في السوق ومن ضمنهم قريب أستاذ خلف صاحب الدكان، وجاء ليخلصه من بين أيديهم. أبعد أعضاء المفرزة المتجمهرين، ومن ثم تقدموا نحو أستاذ خلف والطالب مقيدين أيديهما بالقيود مع نزع قميصيهما، وبدأوا بجلد كل واحد (٨٠) جلدة حتى أغمي على أستاذ (خلف) ووقع على الأرض بينما الطالب يصرخ:

- أنتم أهنتهم أفضل مدرس في الشرقاط.. وهذا ظلم .. نعم هذا ظلم.

أعاد أفراد المفرزة جلد الطالب مجددا حتى أغمي عليه أيضا. فتحوا القيود من معصمي أستاذ خلف والطالب ثم غادر أعضاء المفرزة المكان .

قام المتجمهرون بنقلهما إلى مكان ظليل، ومن ضمنهم قريب أستاذ خلف، ورشهما بماء بارد. استفاق الطالب بعد قليل بينما بقيت عينا أستاذ خلف جاحظتين باتجاه السماء، إذ فقد حياته جرّاء بشاعة ما تلقاه من معاملة سيئة، وإهانته أمام طالبه وأمام أبناء مدينته الذين درسهم طوال عقود من الزمن.

رائحة الموت

بقيت رائحة الموت تزكم أنفي لفترة طويلة أجبرتني على ملازمة بيتي ولا أخرج إلا لمسائل ضرورية كشراء ما يحتاجونه في البيت من مواد غذائية،أو خضروات،أو فاكهة، أو شراء حلويات لآخر العنقود (توتا)، أو شراء سكائر من أشخاص أعرفهم في السوق اعتمدوا في عملهم على بيع السكائر التي حرمها الدواعش، وعدوها جريمة يحاسب عليها شرعهم كل من يدخنها أو يبيعها.

في كثير من الأحيان أخرج منذ الصباح الباكر إلى سوق المدينة، ومع هذه الحركة المحدودة كنت أحاول أن أتجنبهم باختيار أوقات عدم وجودهم أو قلته، وأتحاشى أوقات وجود مفارزهم؛ فأنا مطلوب لديهم لأنني صحفي، وبنظرهم فإنَّ الصحفي يتعامل مع الحكومة أو ينادي بالديمقراطية التي لا يؤمنون بها.

المحطة المعتادة هي أن أزور مقهى لألتقي فيه صديق الطفولة مع أصدقاء آخرين تعرفت عليهم قبل دخول الدواعش، وكلهم يهتمون

بالأدب والفن، أراهم متراصين على أريكة قبالة محل صغير يقع في زاوية من قيصرية مسدودة.

كنت أول ما أصل أتناول الشاي، ثم أسأل صديق الطفولة عن أفراد عائلته، وقد علمت أن أخاه الطبيب قد هرب من المدينة هو وزوجته، وذهب إلى محافظة واسط في الجنوب، المحافظة التي يقطنها أهل زوجته الطبيبة ثم انتقل إلى تركيا واستقر هناك. ثم سألته عن أخيه الآخر الذي يقود شاحنة لنقل البضائع وتحدث لي عن معاناته، فالعمل ضعيف ولا فائدة منه، فترك شاحنته ليعمل عملاً آخر، وبعد استقصاء أخبار عائلته، وبعد إكمال شرب الشاي كان لابد لي من الدخول إلى صومعة المدخنين لأدخن السكائر.

وبعد أن انتهيت من شرب سكارتين رجعت إلى مكان جلوس صديقي والآخرين، وتلقيت خبرًا مفاده بأن صديقنا الفنان التشكيلي، وهو مدرس لمادة الفنية أيضا، قد حاول الهرب إلى خارج العراق عن طريق الحدود السورية، لكنه قد وقع في فخ مفرزة الدواعش قبل عبور الحدود وتعرض لإهانة كبيرة على ايديهم مع حجز لأيام عدة وتغريمه مبلغا بقدر المبلغ الذي أخذه المهرب، وبذلك خسر أغلب ما جمعه في لحظة واحدة، وعلمت منهم بأنه الآن معتكف في داره بسبب

ما تعرض له من إهانات وابتزاز على ايديهم الدواعش.

علق صديق الطفولة قائلا:

- هؤلاء الأنجاس إذا أمسكوا الهارب فإن عقوبته تكون مادية ومعنوية، مادية بأن تؤخذ منه مبالغ كبيرة بقدر المبلغ الذي كان يأخذه المهرب من الشخص الواحد، والمعنوية من قبيل الإهانات والضرب والسجن لمدة قد تصل إلى أسابيع. وإذا كان الهارب من الذين يكفرونهم كالصحفي أو المحامي أو الشرطي أو... أو...فقد يكون الموت أي الإعدام هو القصاص الأكيد.

اشتريت من صاحب المقهى سكائر تكفيني لفترة ليست بالقصيرة ثم ودّعت أصدقائي، واتجهت إلى ساحة بيع الخضراوات والفواكه لأشتري ما سجلته في القائمة من احتياجات،تذكرت ابنتي الصغيرة التي أوصتني بجلب بعض الفواكه وبعض الحلويات، والقيت بنظري على البسطات المتراصة وشاهدت فاكهة الرمّان التي تحبها كثيرا تكومت على منضدة حديدية رصاصية، فاشتريت لها ما مقداره كيلوين ووضعته مع باقي الخضروات والفواكه، ثم اتجهت إلى سوق بيع الحلويات بالجملة، واشتريت من محل أحد الاصدقاء

بعض العُلب التي أكد على جودة نوعيتها ثم استعلمت منه عن المبلغ فقال ضاحكا:

- هذه هدية لـــــ (توتا الشطورة).

وأصرَّ على عدم أخذ المبلغ، بدوري شكرته وقلت له:

- سأبلغ (توتا) بأن هذه العُلب من الحلويات هدية من (عمو فارس).

ضحك وقال :

- سلامي لتوتا التي لا ترضى إلا أن تكون دكتورة في المستقبل.

ثم خبأت السكائر بين علب الحلويات، وأكياس الخضروات، وودعته على أن نلتقي قريبا، وبعد ذلك اتجهت إلى الشارع العام، وركبت سيارة نقل عام صغيرة نوع (كيا) متجها إلى البيت قبل إعلأن آذان الظهر بساعة تقريبا، وفي هذه الأثناء لاحظت تجمهر الناس أمام بناية عالية، وإذ بأحد الدواعش كان واقفا على تلك البناية ممسكا بشاب في مقتبل العمر، في حين أوقفت مفارزهم السيارات المارّة، وأنزلوا منها الركاب لينضموا إلى المتجمهرين عنوة.

نزلت ومعي مجموعة من الأكياس التي تبضعتها من السوق، ووقفت على الجزرة الفاصلة بين الشارعين ووقف إلى جانبي باقي

الركاب ومن ضمنهم إمرأة عجوز. ما يسمى بالقاضي (اللاشرعي) كان واقفا في أسفل البناية حاملا ورقة ليتلو حكم الاعدام، وهو محاط بمجموعة من الدواعش الذين يحملون الاسلحة متأهبين للرمي ونظراتهم باتجاه المتجمهرين، بينما يقف الداعشي الممسك بالشاب فوق البناية ينتظر الاوامر بالتنفيذ،والشاب يرتجف بين يديه خوفا وذعرًا. رفع القاضي (اللاشرعي)يده إشارة لبدء التنفيذ، فتمَّ رميه من أعلى البناية ذات الطوابق العديدة. صاحت المرأة العجوز التي تقف إلى جانبي:

- والله حرام عليكم .. شاب يموت بهذه البشاعة.

رد السائق قائلا:

- يقولون بأنه عميل للحكومة.

زادت رائحة الموت التي تزكم أنفي، ثم استفرغت في كيس أسود، قال السائق:

- الظاهر الحجي قلبه أرهيف.

اتجهت إلى أقرب سلة مهملات ورميت الكيس، ومن ثم استأجرت سيارة تكسي متجها إلى البيت، ورائحة الموت ضربت حاسة الشم مجددًا، وكدتُ أفقد توازني لولا أنني تذكرت ضحكة(توتا

) وهي تستقبلني وتحضن عُلب الحلويات.

ظلّت رائحة الموت تلازمني، ولم أخرج من البيت هذه المرّة لأكثر من عشرين يوما، بعدها قررت الخروج إلى السوق لأرى أصدقائي، واستفسر عن أخبار الآخرين من الذين لم أشاهدهم منذ مدة طويلة.

جلست كعادتي على أريكة صديق طفولتي في المقهى، وأنا أحتسي الشاي بادرني قائلا:

- استطاع (بشار) أن يصل إلى تركيا عن طريق أصدقاء له في مدينة (الرطبة) أو (عانة)هكذا قال لي زوج أخته، وهو حاليا في تركيا، وينوي أن يستقر في أربيل، ولكن المشكلة أن عائلته لا تستطيع الخروج الا مع مُحْرَم لأنه خرج وحده خوفا عليهم؛ إذا خرجوا معه قد يتعرضون للإهانة والعقوبة الجماعية كما حصل ذلك للفنان التشكيلي.

في قرارة نفسي فرحت جدا لأنه استطاع أن يخرج سالماً، فهو مطلوب لهم لأنه صحفي مثلي. لكن عائلته الآن في مأزق، لأنهم ما زالوا بعيدين عنه،ويقينا سيخرجون يوما ما ويلتحقون به.

استدرك صديقي قائلا:

- ما رأيكم نزور شارع المكتبات. لعلنا نعثر على شيء ما؟

وافق الجميع على هذا المقترح، ونهضنا جميعا. قلت له هامسا :

لابد لي من أخذ حصتي من السكائر من صاحب المقهى قبل مغادرتي.

فعلا تمَّ لي ذلك بعد تدخين سيكارة في الصومعة، أخذت الكيس الأسود ووضعته في كيس أكبر، ومن ثم اتجهنا صوب شارع المكتبات.

مع دخولنا إلى شارع المكتبات، هاجمتني رائحة الكتب والأوراق القديمة التي ذكرتني برائحة الموت الذي لم أتخلص منها بعد. كما تذكرت تجوالي مع صديق طفولتي وصديق آخر في أرجاء المكتبات كلما سنحت لنا فرصة لذلك عندما كنا طلابا في المدرسة.

شاهدت الكتب القديمة مرمية على الأرض، شدت نظري أغلفة الكتب القديمة ولاسيما الروايات التي زينتها أغلفة من ورق سميك لإخفاء الرسوم عليها، لأن الرسم حرام والصورة أيضا، ولهذا استخدم الكتبيون هذه الحيلة حتى تنطلي على مفارزهم الذين يمرون من هناك.

بدأت أقلب بعض الكتب جذبني عنوان رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) التي هي من أهم رواياته بعد الثلاثية؛ فهي رواية

تناقش أفكار العبث والموت ومعنى الوجود، وبحث البطل عن العدل الضائع في دهاليز الأمكنة.

أخذت الرواية ومزّقت الغلاف الورقي السميك وظهر غلاف الرواية الأصلي: يد ممسكة بالمسدس، وفي أعلى الكادر كلبان رافعان رأسيهما بينما في الأسفل فتاة كأنها هاربة ومتشردة.

همس صديقي في أذني قائلا: اللصوص والكلاب خلفك. وضعت الكتاب في الكيس الأسود، وأعطيت للكتبي ألف دينار، واتجهنا جميعا صوب الجسر في حين صورة الشاب الذي رماه الداعشي من أعلى البناية وهو يرتجف مازالت محفورة في ذاكرتي ولن أنساها ما حييت.

ذاكرة حفار القبور

أنا الذي نذر نفسه لحفر القبور ودفن موتى القرية منذ زمن ليس بالقصير. هذه العبارة كان يرددها الشيخ (فاضل) مع نفسه دوما، وهو مستلق على فراشه بدشداشته الفضفاضة،فقد كانت جراح صديقه (حسين) في حرب سابقة على الارهابيين في منطقة (قريتهم) التابعة لمحافظة صلاح الدين نقطة فاصلة في عمله هذا؛ فجراحه العميقة والملوثة عجلت من موته، وكان الشيخ (فاضل) طبيبا ملازما للمدافعين عن قريتهم في جبهة القتال التي وقعت على اطراف القرية، وعجز (فاضل) عن انقاذ صديقه (حسين)، ومنذ ذلك الحين نذر نفسه لدفن كل من يموت في قريته هذه.

بين مدّة وأخرى يتذكر الشيخ (فاضل) كيف بدأت المواجهة مع عصابات داعش في قريتهم التي أودت بحياة صديق عمره حسين:

بعد أن استمر الحصار على قريتنا مدّة طويلة التي أدت إلى فقدان الاتصال بالعالم الخارجي، وكذلك فقدان المواد الغذائية والأدوية

الأساسية كأدوية الأمراض المزمنة، وعلى وشك نفاد أعتدة الأسلحة التي يمتلكها الأهالي. طلب وجهاء القرية أن يتسلل أحد الذين يثقون به لتوصيل رسالة إلى مسؤول (الحشد الشعبي) الذي تشكل بفتوى من المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وكانت رسالة وجهاء القرية مفادها تعجيل فك الحصارعن القرية فضلا عن ذلك تزويدهم بالمستلزمات الأساسية من أغذية وأسلحة لإستمرار مقاومة الدواعش وإنهاء تواجدهم في المنطقة؛ إذ وقع الاختيار على صديق الطفولة (حسين) الذي لم يتردد بتنفيذ المهمة الموكلة إليه، وأثناء عودته من مهمته هذه استهدفته عناصر الدواعش التي تحاصر قريتنا، وهو على أحد مداخل القرية،وكانت إصابته بليغة لم أستطع انقاذه من الموت، وبتضحيته هذه أنقاذنا بعد فترة وجيزة؛إذ استطاعت القوات المسلحة وأبطال الحشد الشعبي من توفير المستلزمات الضرورية من مواد غذائية وأدوية وعتاد عبر طائرات الهليكوبتر.

بعض من أبناء قريته البسطاء يقولون: الشيخ (فاضل) يدفن الموتى لأنه يريد أن يكسب الآخرة، ويزيد من حسناته، ويرى بعضهم الآخر أن قلبه ميت، لذا تراه يدفن الصغير، والكبير، والمرأة، والرجل، بينما الكبار في السن ممن عرفوه، وهو يدافع عن قريته يعرفون السبب

الحقيقي، ويذكرونه بإصرار: فاضل الذي نذر نفسه لدفن الموتى من دون أجر وفاءً لذكرى صديقه الذي أستشهد على أطراف القرية ولم يستطع انقاذه؛ لأن قريتنا محاصرة من كل الجهات.

الشيخ فاضل كما يحلو لأهل القرية أن يسمونه، يعيش في المقبرة، وهي تقع على أطراف القرية من جهة الجنوب، ويحيط المقبرة سياج مكون من جزئيين: الجزء الأسفل من البلوك، والجزء الاعلى من أسلاك شائكة تصدأت بفعل الأمطار والعوامل الجوية الاخرى. كان الشيخ فاضل يعيش في تلك المقبرة أكثر مما يعيش في بيته، وبين أولاده وأحفاده، فأكثر وقته يقضيه بحفر القبور، ويحضرها حتى تكون جاهزة لتتلقى موتى القرية الذين ازداد عددهم في الآونة الأخيرة، ازدادوا بسبب الأمراض الغريبة والعجيبة التي لم تألفها قرية مثل قرية الشيخ (فاضل) ثم توالت الكوارث بسبب شق الطريق في وسط القرية التي أصبحت ممرًا للشاحنات والسيارات ليلاً ونهارًا.

الغريب والعجيب لم يكن الشيخ فاضل من هواة المطاعم، وكان إذا ذهب الى المدينة يأخذ طعامه معه في زوادته التي تحتوي على الخبز وبعض الخضار أو الفاكهة، وزمزمية ماء توارثها منذ أيام الشؤم عندما هاجم الإرهابيون قريتهم، واستشهد صديقه وبعض

أبناء القرية، ويردد دائما للذين يلومونه على هذا التصرف: بأنَّ الطعام الذي بحوزته يعرف مصدره وفوائده، بعكس طعام المطاعم. لذلك عندما مات أقرانه جميعا في القرية،علل سبب عدم موته بأنه لم يُسرِفْ في الطعام ولا سيما طعام المطاعم المنتشرة في المدينة بشكل جنوني.

لم يترك الشيخ (فاضل) القرية الإ نادرا لعمل ضروري يتطلب حضوره في المحكمة مثلا، أو دوائر أخرى تطلب حضوره حصرًا، فكان يهيئ حفر القبور، ويبادر أحد أولاده بدفن الموتى ويسجل بعض المعلومات في سجل دفن الموتى الذي تركه الشيخ (فاضل) على منضدة في غرفة نومه، والمعلومات المسطّرة في السجل هي كالآتي: اسم المتوفى، عمره أو مواليده، سبب الوفاة، العلامات الفارقة، مقتنيات المتوفي، ملاحظات عامة.

وكلما وجد الشيخ (فاضل) وقت فراغ، كان يقلب سجل دفن الموتى ويتذكر أهم اللحظات التي استوقفته بسبب غرابة الموقف، أو صعوبته، أو تميزه من باقي الحالات. يتذكر كل هذا وهو مُستلقٍ على فراشه بعد قراءة الكتب التي بحوزته، وهي كتب متنوعة من ضمنها دواوين شعرية لشعراء عرب وأجانب، بل بعضها باللغة الأنكليزية ككتب الطب ودواوين شعراء انكليز، وكان تستوقفه دوما: قصيدة

الأرض الخراب (لإليوت) ولاسيما ما يتعلق بدفن الموتى حين يقول أليوت: (ماكنت أحسب أن الموت قد طوى مثل هذا الجمع، حسراتٍ، قصيرة متقطعة، كانوا ينفثون)، وقصيدة حفار القبور للسياب حين يقول الشاعر: (مستوحدا أرعى القبور وأنفض الدرب البعيد، وكأن يا بشرى، كأن هناك في أقصى الجنوب، خطا كأذيال الظلام ولمعة كدم الغروب، لكأنه ضيف جديد)، وأيضا ملحمة كلكامش بقلم الآثاري طه باقر التي تخص علاقة كلكامش بأنكيدو.

وبعد القراءة يبدأ يستذكر الذين دفنهم عبر تصفحه سجل دفن الموتى، ومن أطرف الحالات وأغربها، حالة دفن ميت شطب من السجل بسبب عدم موته، وكان هذا الميت دفنه ابن الشيخ (فاضل) عندما كان في المدينة وهو يراجع أحد دوائر الدولة، وفي المساء كعادته وهو يحفر أحد القبور سمع صوتا غريبا في المقبرة، صوتا لشيء يضرب ويرفس الأرض، اقترب من مكان هذا الصوت، وإذا بصوت ضرب أعلى من السابق، وبسرعة فائقة نبش القبر بتأن وأخرج المدفون وأوصله الى بيته، وقلب العزاء الى فرح قلَّ مثيله، وأصبحت هذه الحادثة على لسان كل بيت في القرية، وسموه ببيت (الميت)، وكانوا يقولون أبناء الميت: الله أحيا أبانا، وأكيد سيكون له بركات جراء رجوعه من عالم

البرزخ، وفعلا أصبح الميت قبلة للزائرين من كل حدب وصوب ليأخذوا البركة من العائد من العالم الأخر، بينما فسر الشيخ (فاضل) هذه الحادثة بأن الرجل لم يّمُتْ بل أغمي عليه وعندما أفاق من الغيبوبة رأى نفسه في القبر. وفي تلك اللحظة تحسّر على موت صديقه الذي مات في معركة المواجهة مع الارهابيين، فهو لم يستطع اسعافه ونقله الى مستشفى المدينة فقد مات في الطريق، فلم تنفع معه كل الوسائل المتبعة لوقف النزيف، وكان الطريق إلى المدينة قد سيطر عليه الارهابيون؛ فلم يعش بسبب النزف الداخلي الذي أنهى حياته في أطراف القرية. يستذكر كلكامش مجددا حين قال: (صديقي الذي أحببت كثيرا، الذي قاسى معي جميع الشدائد، انكيدو، صديقي الذي أحببت كثيرًا، أدركه المصير الذي من نصيب البشر).

وفي أحد الأيام استقبل الشيخ (فاضل) صديقا له في بيته الذي يقع على الشارع الرئيسي الذي يّمُرُّ في وسط القرية، يتصدر البيت الكبير حديقة، وغرفة استقبال كبيرة جدا معلّقة على جدرانها شهاداتهُ وصورهُ. ورأى الضيف سجل دفن الموتى، واقترح عليه أن يحوّل هذا السجل الى مذكرات، وأعجبته الفكرة، وقال الشيخ (فاضل) لصديقه: سأكتب مذكراتي هذه باللغة العربية والإنكليزية لتكون

أوسع مدى، وليعرف القاصي والدّاني ما حدث لي ولأبناء قريتي.

لم يعد يذوق الشيخ (فاضل) طعم الراحة فهو يقضي معظم نهاره وليله في المقبرة، ثم في كتابة مذكراته، وبدأ يردِّدُ مع نفسه ويسطّرُ في دفتر مذكراته: أنا الذي نَذَر نفسه لحفر القبور ودفن موتى القرية، وأكتب بقلمي تفاصيل الأيام السود التي مرّت علينا جميعا، وأسطر بقلمي هذا منجزات الأبطال من القوات المسلحة والحشد الشعبي الذين كان لهم صولات في تحرير قريتي.

الخالة أم حسين

الكادحون من أبناء العراق عموما يبحثون عن طريقة لكسب لقمة العيش بكرامة، ولذا نرى الكثير من (البسطيات) منتشرة هنا وهناك وخاصة في أسواق المدن الكبيرة، ومنها مدينة بعقوبة وتحديدًا في السوق القديم الذي تتوزع أمامه وعلى الشارع الرئيسي منه عدد كبير من البسطيات، وكذلك أمام المحلات أو بقربها، وكانت(أم حسين) قد افترشت زاوية قرب إحدى المحلات التي تقع قبالة المصرف، وأم حسين هي أرملة توفى زوجها جراء انفجار عبوة ناسفة زرعها تنظيم القاعدة على قارعة الطريق مع بداية السنة الدراسية لعام ٢٠٠٦، ومن ذلك اليوم لم تنزع السَّواد حتى في يوم عرس ابنها الوحيد(حسين)، الذي تطوّعَ مؤخَراً في الجيش العراقي وهو لم يتجاوز العقد الثاني من العمر، وقد زوجته أمه مبكرًا لترى أحفادها قبل أن يأخذ الله أمانته على حد قولها.

تأتي (أم حسين) فجر كُلَّ يومٍ وفوق رأسها صينية (قيمر عرب) مغطاة بقماش أبيض، وعدد من الكيلوغرامات على هيئة كرات من

(جبن العرب) أيضا ملفوفة بشاش خفيف من نوع (الململ) أبيض اللون مستقرة في وعاء من الألمنيوم تحت تلك الصينية. تبيع كمية القيمر والجبن قبل الظهر، ومن ثم تتجه إلى سوق الخضروات الذي لا يبعد كثيرا عن مكان عملها، وتتسوق منه ما تحتاجه ثم تستقل سيارات النقل العام متجهة إلى بيتها الذي هو عبارة عن (صريفة) في الأطراف الجنوبية من حي اليرموك الثانية، ويسكنون في الصرائف بحدود ٤٧ عائلة هم عوائل نزحوا من مناطق (المعدان).

لدى (أم حسين) عدد من الزبائن الدائمين منهم صاحب مقهى شعبي يقع في نهاية الشارع الرئيسي للسوق القديم في بعقوبة؛ إذ يشتري ما يقارب نصف كمية القيمر بسعر الجملة، وبذلك تضمن مصروفها اليومي فضلا عن ذلك هناك عدد من أصحاب المحلات والدكاكين يرسلون عمالهم ليشتروا باستمرار منها القيمر والجبن لتكون وجبة الفطور لهم مع الخبز الحار والشاي المهيل، وهؤلاء العمال يسمونها الخالة (أم حسين).

نادرا ما يأتي مستطرق ليشتري منها كموظفي الصحة الذين لديهم خفارات ويذهبون صباحا إلى بيوتهم ليتمتعوا بقيمر وجبن العرب من يدي (أم حسين)؛ إذ أصبح قيمرها وجبنها ماركة مسجلة حتى أن بعض الزبائن يطلق تسمية قيمر أم حسين وجبن أم حسين،

كما اعتاد بعض من هؤلاء الزبائن وضع بعض الحاجات عندها لحين عودتهم مرّة أخرى من مشوارهم القصير.

كانت (أم حسين) تفرح كثيرا عندما ترى العديد من الأكياس وفي بعض الاحيان الصناديق البلاستيكية أو العُلَبْ الورقية بجانبها؛ فكأنها ملكت الدنيا لأن الناس يأتمنونها على حاجاتهم وأغراضهم، وحين عودة أحدهم تستقبله بابتسامة وتسلمه ما أودعه لديها من حاجيات وتقول له:

- (خالة هاي اغريضاتك).

فيجيب الذي أودعها حاجياته أو أغراضه قائلا:

- (ألف رحمة على والديج).

كانت تشعر بفرحٍ غامرٍ وزهوٍ ما بعده زهُو: لأنها حصلت منه على دعوات لوالديها اللذين كانت تحبهما كثيرا، وكانت تردّد مع نفسها الآية الكريمة (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، بل كانت كلما سنحت لها الفرصة تذهب إلى مراقد الأئمة وتدعو لهما فضلا عن ذلك تزور قبريهما وتتصدق على روحيهما.

كما كانت (أم حسين) تبيع القيمر أو الجبن بمبلغ زهيد للفقراء والمحتاجين، وعادة ما يكونون حاملين صمونة أو خبزا، وفي بعض

الأحيان تعطيهم مجانا، وتقول في سرها:

- هذا لوجه لله.

عادة ما تأتي (أم حسين) إلى مكان عملها مع بدابة شروق الشمس، ولكنها اليوم تأخرت قليلا عن موعدها، ورأت صاحب المقهى وبعض الزبائن الآخرين في انتظارها، بادرها صاحب المقهى:

- خير إن شاء الله .. اليوم متأخرة (مو من عوايدج)؟

ردت (أم حسين) وهي تضع الصينية والقدر الألمنيوم على الارض :

- (يمه حسوني التحق بالمعسكر وردت اشبع من شوفته).
- والله فعلا(الجنة تحت أقدام الامهات).

ناول صاحب المقهى صينيته ثم استدرك قائلا:

- (انطيني حصة كل يوم من القيمر حتى اروح للكهوة).
- تدلل يا أبو أمير.

اقتطعت (أم حسين) بالسكين ما يعادل نصف القيمر الموجود في الصينية، ووضعته في صينية صاحب المقهى مناولا اياها رزمة من العملات الورقية ثم أخذ صينيته بسرعة، وقال لها مازحا:

- (لا تتأخري باجر.. ترى رزقنا على هالكَيمرات).

ردت قائلة:

- كل شيء بيد الله.
- ونعم بالله.

وبعد ذلك أعطت ما أراده الاخرون المنتظرون مع صاحب المقهى، وجاء عامل المقهى بكوب شاي وقال لها:

- (هذا الجاي من أستاذي أبو أمير، وطبعا الجاي من راس القوري).
- والنعم منك ومن استاذك.

ثم أخرجت علبة السكائر، واشعلت سيكارة، وأخذت نفسا عميقا منها مع رشفات من كوب الشاي، وقالت في سرها:

- الحمد لله على كل حال.

في هذه الاثناء جاء زبون يرتدي دشداشة قصيرة نوعما، وذو شارب ولحية خفيفة، يحمل كيسا أسودًا منتفخًا. وقف بقرب (بسطة أم حسين) قال لها:

- (أريد قيمر وجبن)
- بكم تريد؟
- بخمسة آلاف دينار.

وضعت في ماعون بلاستيكي ما أراده، وناولته الماعون، وأعطاها المبلغ. ثم استدرك قائلا:

- (ممكن أخلي هذا الكيس يمج).

وضع الكيس بجانبها، وقالت له:

- (ترى أنا أعزل البسطية بعد ساعة. يعني لا تتأخر).

أجابها بهزّة من رأسه ثم غادر المكان. مضت ساعة ولم يأت الرجل ذو الدشداشة القصيرة واللحية الخفيفة. لملمت الصينية والقدر والاواني البلاستيكية وباقي عدتها كالسكين والاقمشة بعد أن باعت كل ما جلبته من قيمر وجبن، استوقفها الكيس المنتفخ، أخذته واتجهت إلى محل حسن القصاب بادرها قائلا:

- أهلا يا أم حسين.
- وبك يا أبني
- هذا الكيس وضعه أحد الزبائن عندي ولم يرجع إلى حد الآن .

بادرها حسن القصاب بالسؤال:

- ماذا قال لك بالضبط؟ !

أجابت أم حسين بسرعة:

- (خلي هذا الكيس يمج).
- وماذا قلت له؟
- قلت: (ترى أنا اعزل البسطية بعد ساعة. يعني لا تتأخر).
- وبماذا أجاب؟!

قالت أم حسين بثقة:

- هزَّ رأسه وغادر المكان.

نادى حسن القصاب على عامليه وطلب منهما مناداة بعض اصحاب المحلات القريبة، وبعد حضورهم وبوجود أم حسين؛ قام حسن القصاب فتح الكيس بتأن فهبت منه رائحة قوية، هي رائحة كرشة خروف غير منظفة، ومن ثم تحسس الكرشة اصطدم يديه بشيء صلد ليس شبيها برأس خروف؛ إذ تلمس كل الشيء من الجهات كلها. أغمض عينيه، رفع ذلك الشيء الصلد رويدا رويدا. صاحت أم حسين بأعلى صوتها:

- يمه هذا يشبه رأس حسوني.

سقطت أم حسين مغشية على الأرض، وهي تندب ولدها بحرقة.. ولييييدي .... حسبي الله ونعم الوكيل.

القناص

كان يتحدث في سرّه: هل سأنجو أنا والعائلة من جحيم داعش؟! والعيش بأمان في مكان تسوده الحرية. كيف لا؟ وهو ذلك الصحفي الذي كتب عن الحرية عشرات المقالات، بل مجّد كل من نادى بها. أجاب والقلق يعتصر قلبه: أصبح هذا حُلمًا وأتمنى أن يتحقق.

سار في شوارع المدينة هائما يفكر في حلٍ لهذه المعضلة: يفاتح مَن في هذه المسألة؟ لابد أن يكون حذرًا. كيف لا؟ وهو سيضع حياته وحياة عائلته بيد من سيهربه إلى ذلك المكان. تذكر في هذه الاثناء حديث صديقه الذي أكد له أنَّ الدواعش بدأوا بحملة شعواء على الصحفيين، فكل صحفي بحسب نظرهم يُعَدّ تابعاً للحكومة، وعقوبته هي الاعداد.

لذا قرر أن يهرب هو وعائلته من المدينة بأيّ شكل من الأشكال مع تأمين مهرّب يستطيع الاعتماد عليه يوصلهم إلى مكان آمن. فقد

سمع بأن أغلب الذين يهربون عن طريق سوريا يعودون بخفّي حنين أو يتعرضون إلى القصاص الظالم من الدواعش؛ ففكر بالهروب إلى مدينة كركوك من طريق قضاء الشرقاط وتحديدًا قرية (اسديرة) القريبة منها.

لمعت في ذهنه فكرة الاتصال بصديقه في قرية اسديرة، ارتسمت الفرحة على محياه. قال في سره:

- لابد من الاتصال به ليلا.

بعد صلاة العشاء بقليل، نزع فيشة التلفاز ووضعها في جهازه النقّال لكي تقوى إشارة الاتصال ثم اتصل برقم نقّال صديقه (حسن)؛ وبعد تبادل السؤال والاطمئنان، قال الصحفي لصديقه :

- سيأتي أبني مصطفى لقريتكم ويبلغك ما أريده.
- بل تعالوا (سيّروا عدنا).
- قريبا إن شاء الله.

بعد أن أبلغه أبني نيّتي بخروجي وعائلتي إلى كركوك والبحث عن (مُهرب) يكون من الثقاة ينقلنا من الموصل إلى كركوك والاتفاق مع المهرب على ذلك، طلب صديقي أن أكون في قريتهم قبل أسبوع من الموعد من أجل أن يتبين الموضوع كأنه زيارة إلى المكان.

نقلنا المهرب من الموصل بسيارة خاصة عبر طريق نيسمي بعيدًا عن مفارز الدواعش، ولأجل تفادي الوقوع في إحدى المفارز غير المعروفة على الطريق تمَّ تصوير هويات أفراد العائلة تصوير عالي الدقة لتتبين نسخا أصلية وإعطائها للمفرزة بدلا من النسخ الأصلية.

وصلنا إلى قرية (اسديرة) مع آخر خيوط النهار واستقبالنا صديقي وعائلته بحرارة، وبعد تقديم العشاء ذهبت مع صديقي إلى بيت المهرب الذي لا يبعد سوى عشرات الأمتار. قال المُهرّب بعد الاتفاق على تفاصيل كثيرة:

- هذه الليلة لدي عائلة سأهربها وإن شاء الله بعد ثلاثة أيام أعود لأهربك وعائلتك.

قال صديقي له:

- نحن بانتظارك على أحرِّ من الجمر.

خلال هذه الثلاثة أيام كان أحد أشقاء صديقي يقيم وليمة يومية بمناسبة قدومنا إلى (أسديرة) والاحتفاء بنا على طريقة أهل قرى الشرقاط، كما قمنا أنا وولدي بصحبة ابن صديقي بالذهاب إلى نهر دجلة للتمتع بالمناظر الطبيعية التي هي أشجار(الغَرَب) على حافة النهر وبعض البساتين الموجودة هنا وهناك وهي تعانق السماء

الصافية.

ابني البكر وأخاه استمتعا بالسباحة في نهر دجلة، و كانت الفرحة بادية على محياهما وهما يلعبان بالماء الذي يتناثرحولهما عند حركتهما وحركة ابن صديقي في حين استمتعت أنا بتلك المناظر الطبيعية التي جعلتني أنسى همومي وهموم عائلتي التي هي على كفٍّ عفريت كما يقول المثل.

في المساء جاء أحد أبناء عمومة صديقي كي يتسامر معه؛ وإذ به ينقل لنا خبر مفاده بأن الدواعش القوا القبض على المهرب بتهمة تهريب العوائل إلى خارج الدولة..

في صباح اليوم التالي أصبح خبر القاء القبض على المهرب على لسان كل أهالي قرى الشرقاط، بل أحدهم أكد لصديقي وهو عائد من الشرقاط بأن الخبر صحيح وأنهم قَرّروا اعدامه في ساحة (فلكة بعاجة) بعد صلاة العصر مباشرة أمام أنظار الناس ليكون عبرة لغيره.

قال صديقي وهو مهموم :

- (ما عدكم حظ يا أخويه .. لقد كان هذا المهرب في كل مرّة يخلص من المسألة مثل ما تطلع الشعرة من العجينة).

اجبته بحسرة:

- قد يكون الخبر كاذبا.

هذا الشخص الذي نقل لي الخبر كلامه مضبوط مئة بالمئة. ولكي نتأكد من ذلك لابأس نروح إلى (فلكة بعاجة) بعد صلاة العصر ونتأكد.

وصلنا المكان (فلكة بعاجة) وإذا بجمهرة كبيرة من الناس واقفين يتطلعون إلى ما يفعله (الدواعش) هناك: اثنان منهم يعلقون رايتهم الموشحة بالسواد بينما هناك مجموعة مسلحة منهم يرفعون السلاح وكانوا متأهبين لأي طارئ في حين هناك مصور يحمل بيده كاميرا فيديو، والناس ينظرون إلى ما يجري باندهاش كبير، نظرت إلى صديقي الذي بادرني قائلا:

- الخبر مؤكد لأنَّ هذه الاجراءات لإعدام شخص ما.
- أنت قلت كل مرّة يفلت من العقاب لماذا هذه المرّة لم يفلت؟!
- أجاب صديقي قائلا:
- أتوقع انَّه كان قد وَقَّع على تعهد سابقا بعدم تهريب الناس، وعلى وفق هذا التعهد تمت إدانته.
- لا حول ولا قوة الا بالله.

في هذه الاثناء دخلت سيارة (بيك آب) يجلس في حوضها

شخص مكبل وحوله مجموعة من الدواعش المسلحين، وترافق البيك آب سيارات صالون أخرى متجهين جميعا إلى(فلكة بعاجة).

أوقفوه في وسط رايتهم المعلقة بعد فك (الأغلال) من يديه في حين (القاضي اللاشرعي) ذو اللحية البيضاء المخلوطة بلون الحناء ويرتدي دشداشة قصيرة ويحمل في وسطه مسدسا كبيرًا. أخرج ورقة من ملف تلى منها حكم الاعدام بحق المُهرب، وأكد بيان الحكم أن يكون اعدامه رميًا بسلاح قناص .

بعد الأنتهاء من تلاوة البيان تهيأ القناص الواقف قبالة المهرب في حين باشر المصور بتوثيق الجريمة،ومجموعة من الدواعش يحيطون المهرب رافعين الاسلحة من كل الجهات، وعلى حين غفلة أطلق القناص رصاصة في وسط جبين المهرب سقط على إثرها على الأرض ثم اتجه ما يسمى (بالقاضي) اللاشرعي نحوه ليتأكد من موته وقال للجميع:

- ممنوع رفع الجثة ودفنها فهي ستبقى هكذا تنهشها الكلاب ليبقى هذا المهرب عبرة لمن اعتبر.

انطلق نشيج امرأة في وسط التجمع، ثم انطلقت أصوات صراخ أطفال صغار تمرذغوا في الأرض وبعد ذلك بقليل هبّت عاصفة ترابية غطت المشهد كله.

مغامرة الأبناء

عند أسفل الجبل جلسنا، قرب إحدى الصخور الكبيرة، تراءى لنا موقع المغارة بعيدا.. بعيدا جدا، وألسنة الصخور زادته بُعدًا، وصعوبة، صعدنا بعض التلال... وبعض جدران البيوت الواطئة في القرية، فلم نعهد مثل هذه المكانات العالية. كنا ثلاثة أنا ابن المدينة، واثنين من قريتي وهي مسقط رأسي. أحدهما هو (كاكا جمال)، وآخر صديق لنا اسمه (مردان). منذ زمن قررنا أن نتسلق هذا الجبل الذي يقع أمام قريتنا، كي نستكشف المغارة .

في داخلنا اشتعلت نار التحدّي.تحدي الأقاويل والأحاديث التي تتقاذفها ألسنة الجميع: كبارًا / صغارًا / رجالاً / نساء، حول هذه المغارة المقدسة التي أصبحت الحكايات حولها أقرب إلى أساطير جداتنا وأمهاتنا؛ حكايات حرضت مخيلتنا على ابتكار طريقة لارتياد هذه المغارة مهما حدث؛ فلهذا تكتمنا حول ما قررناه، أعددنا العدة لذلك.. إذ جلبنا الطعام والماء؛ فقد وضع كاكا جمال طعامه في (صُرَّة)

بينما صديقنا مردان وضعه ملفوفا بكيس نايلون في حين أنا كنت ضيفا عليهما بصفتي قادما من المدينة .

وزَّع كل من كاكا جمال ومردان الطعام على صخرة ملساء كأنها منضدة حجرية. تناولنا الطعام وشربنا الماء واللبن(الشنينة) ثم بعد ذلك نهضنا.

تسلقت الصخور الأولى. شعرت بضيق شديد. وها هي ملابسي الضيقة، وحذائي الجلدي يعيقان تسلقي،وظهر تأخري كأنه تهاون في الصعود. فقد ارتسمت ضحكات على وجه كاكا جمال ومردان،حاولت أن أزحزح خجلي بتسريع الخطى، فلم أفلح.. ازدادت الضحكات الصادرة منهما فقلت:

- لم أتعود على لبس السروال والحذاء البلاستيكي.

قال مردان:

- عليك أن تتعود. فالقرية لا تحتمل مثل هذه الملابس والاحذية.

بادرتهما:

- توقفا قليلا كي الحق بكما

رد كاكا جمال:

- هذه آخر مرة نتوقف فيها، وإلا لن نصل المغارة إلا بعد يومين.

مازالت ضحكتهما ترّن في أرجاء المكان. أحسست بهول المغامرة التي قدمنا عليها. مغامرة أبناء يجهلون خطورة ما قاموا به. أيقنت بان تسلق هذا الجبل الشاهق، والشامخ كالعامود تماما، وألسنة الصخور الحادة كانت سببا رئيسا لتفادي أهل القرية، والتغاضي عن الصعود، والكشف عن صحة الأقاويل التي يتناقلها الجميع بصدد هذه المغارة المقدسة، وكذلك ليضعوا تأويلاً صحيحا، لا يشك به أحد.

قال مردان ونحن جالسون:

- لم نقطع ثلثي الطريق بعد.

رد عليه كاكا جمال:

- سنصل المغارة قبل غروب الشمس.

تأملت المغارة. نظري يجول في المسافة التي بيني وبينها. أما كاكا جمال فرمى بصره إلى الأسفل نحو القرية. قال:

- لنسرع بالصعود، فإن أكتشف أمرنا.. فسينزلوننا عنوة،وبذلك نصبح أضحوكة للجميع.

ثم أكمل مردان :

- و تلوكنا الألسنة تندرًا في جميع أماسي هذا الشتاء الطويل.

اعترضت على كلامهما:

- هذا عمل بطولي. يفترض بهم أن يتحدثوا عنا كما يتحدثون عن الأبطال، لا أن يضحكوا علينا.

نهض كاكا جمال ثم قال:

- لم تُعرف طبائع أهل قريتنا بعد... المهم هيا لنكمل الصعود.

قام مردان وبعده أنا. وضع كاكا جمال خطواته الأولى بخفة كأنه يعرف الطريق جيدا ثم اتبعها بخطوات أخرى أسرع من ذي قبل، وسار خلفه مردان، وتبعتهما.

كلما تقدمنا.. غصّت أنوفنا بالرائحة الكريهة. خدشتها، ومنعتنا من مواصلة المسير كالسابق. كان كاكا جمال أكثرنا حساسية. استطعت أن أقلص المسافة التي بيننا. تقدمت نحوهما. وقفنا جنبا إلى جنب كالعد التنازلي: فهو كاكا جمال أطولنا ثم مردان، أما أنا فاقصر الجميع.. علما أن أعمارنا لا تتجاوز الخامسة عشرة، بل أحاديث أمهاتنا تؤكد ولادتنا في الاسبوع نفسه. لا فرق بيننا إلاّ أيام معدودات. الفارق الوحيد أنني ولدت في مستشفى المدينة بينما الآخران ولدا في القرية،وقد جرّت رأسيهما القابلة (أم سعد) التي

سمتهما أيضا، فعادة أهل قريتنا أن تطلق القابلة الاسماء على الاولاد البكر.ومن دواعي فخر الآباء أن يكون المولود البكر ولداً...سمت الأول (جمال)، ونطلق عليه كاكا جمال، وأما الثاني فسمته (مردان) بينما أطلق أبي عَليَّ اسم (عزالدين). عطس كاكا جمال ثم قال:

- الرائحة تكاد تقتلني، لولاها، لكنت الآن داخل المغارة المقدسة.

ثم أردف قائلا:

- من سيقتحم المغارة؟

أجاب مردان:

- اقترح أن يكون عزالدين.

أجبته موافقا:

- سأقتحمها

رد كاكا جمال:

- أخاف عليك.. أن تصاب بمكروه.. سيلومني الجميع.

أجبته:

لا تهتم كاكا جمال.علينا أن نكمل ما بدأناه. كُنْ متفائلا. فقط اعطني علبة الكبريت. رميت حذائي، وفعل ذلك الآخران.

تقدمت، الرائحة هاجمتني، الرهبة تملكتني، سأرى شيئا الجميع يتشاءم منه. حفر الخوف داخلي وزعزع ثقتي. رفعت نظري. شاهدت باب المغارة الصغير، مغلفا بسواد الدخان. لم أتصور المغارة بهذه الرهبة. توقعتها مكانا عاديا كباقي الأماكن التي كنا نرتادها تنزلق المغارة على فراغ. فراغ واسع بين جبلين، وحافة حادة تؤدي إلى هاوية، انبهرت أكثر؛ فالمغارة على جبل آخر، منفصل عن الجبل الذي اقف عليه. مسافة نصف متر أو أكثر قليلا يفصلني عن فوهة المغارة المستقرة على الجبل الثاني.

هنا في هذه اللحظة تماما أيقنت بقدسية المغارة هذه: مكان مدهش، تراه من بعيد كأنه على الجبل الذي نحن عليه، وما أن تقترب منه حتى ينفصل عنه تماما، ليرقد على جبل آخر. من بعيد يظهر الجبلأن كأنهما واحد. قلت مع نفسي:

- يا الله .. ما هذا العمل البديع. ما هذه التركيبة العجيبة.!

في تمام التهيؤ، أردتُ أن أتعلق بفوّهة المغارة. نادى كاكا جمال:

- لنرجع .. لنرجع .. فالمغارة على جبل آخر.

رميت جسدي على الفوهة، ودفعت قدمي كي أدخل. نجحت فعلا، لكن الرائحة ملأت أنفي، وهيجت دموعي. حاولت أن أسيطر

على السعال الذي لازمني، والذي كاد يفرغ ما في داخل معدتي. ترددت كلمات كاكا جمال داخل المغارة:

- هل أنت بخير؟

اشعلت عود ثقاب. التمع قنديل في زاوية قريبة. بدت المغارة بيتا جميلا. تلاشت الرائحة منه شيئا فشيئا. قلت:

- نعم أنا بخير.

ثلاثتنا في المغارة، أشعل (مردان) باقي القناديل الموزعة في أرجاء المغارة. اندهشت لما رأيت، بيت كامل،أسرّة، ووسائد، وأواني للماء كلها مصنوعة من الحجر، وقناديل موزعة داخل المغارة بمهارة بحيث أنها إذ ما اشعلت جميعا فأن الرؤية تكون كالرؤية في وضح النهار. بينما راح كاكا جمال يمعن النظر في أرجاء المغارة عثر على دهليز صغير لا يتسع الا لشخص واحد. أطلق صرخة مدوية بعد ولوجه الدهليز... هزّت أركان المغارة. هرعنا نحوه. شاهدنا مجموعة كبيرة من الاسلحة المتنوعة، وجثة مرمية على الأرض بملابس غريبة. لم نألفها من قبل، ملابس سود تشبه ملابس أناس شاهدتهم في التلفاز أظنهم أفغانيين أو هكذا تراءى لي، ولحية كثة يخالط السواد البياض. قال مردان:

- إنها ملابس تشبه ملابس (طالبان) الذين حاربوا في أفغانستان كل من روسيا وأامريكا.

قال كاكا جمال بتعجب:

- أنظروا!!!

كانت وريقة تستقر بيده، وحبر مسكوب قربه. تناولها كاكا جمال، وأعطاني إياها. انسحبنا إلى موقعنا الأول، وأمام ضوء القنديل وضعتها وبدأت اقرأ ما فيها:

- (أتينا من أماكن متفرقة، لنعيش على هذه الأرض المقدسة، التي عاش عليها أنبياء وأئمة وقديسون واولياء. أتينا إلى هنا منذ زمن مع اسلحتنا. بدأنا نعيش النهار في هذه المغارة، وفي الليل نسطو على أهالي القرية. نأخذ ما نستطيع أخذه بالسلاح الذي نملكه. طلبت منهم أن نعود إلى ادراجنا بعد أن زاد خلافي معهم، وقلت لهم: نحن ندنس هذه البقعة المقدسة بأفعالنا الوحشية،وبطرق ملتوية لا تمت إلى الدين بصلة. عنفوني. لعنوني. قلت لهم: بأننا ندنس هذه البقعة الطاهرة .. فها هي رائحة كريهة تنتشر في ارجاء المكان منذ وصولنا، وها هي أحلامي تسطع بهذا الأمل أمل الرحيل والأنسحاب...

ضحكوا... ضحكوا، وبدأت هستيريا الضحك تنتابهم. أحسست بمؤامرة تحاك ضد أهل هذه المنطقة.. ذهبوا ليجلبوا آخرين لينفذوا انتشارهم في المنطقة كلها.. في عيونهم رأيت مؤامرة تحاك .. نعم مؤامرة تحاك ضد أبناء المنطقة وضدي أيضا... بدأت أكتب.. كي أبرئ ذمتي: غرباء نحن عن هؤلاء الناس وعن هذه الأرض المقدسة... ولكن.....)

شاهدنا الحبر أختلط بالكلمات الباقية، تلاشت الكلمات. نظرنا إلى بعضنا البعض، والاستغراب يلف وجوهنا؛ ولكن أصواتًا وعويلاً ترددت على مسامعنا. اقتربنا من باب المغارة ثلاثتنا. رأينا جميع أهالي القرية واقفين أسفل الجبل. ينادون علينا. قال أحدهم وأظنه المختار:

- أنزلوا ... أنزلوا ... ستحل اللعنة علينا؛ فالرائحة هاجمت القرية.

توارى قرص الشمس الأحمر القاني خلف غيمة خفيفة، نالت من وهجها في حين نحن وبتلقائية وضعنا أيدينا على أكتاف بعضنا البعض، ونظر كل واحد منا إلى الآخر.. رميت الوريقة وهي ملفوفة بحجرة صغيرة... تماهت أمامنا، تلقفها مختار القرية، والابتسامة ترتسم على شفاهنا.. ابتسامة لم يفهمها أهالي القرية بعد.

عودة

كأغلب أبناء قريته سمع بما جرى في مدينة الموصل من اجتياح بربري لإرهابي العصر (الدواعش) في شهر حزيران من عام ٢٠١٤، الذين بدأت أيديهم تمتد كالأخطبوط إلى القرى والنواحي والأقضية التابعة للموصل، وفي كل الاتجاهات تقريبا.

بعد شهرين، وصلت الأنباء أن الإرهابيين هم على مشارف قرية (قاسم) التي تقع تحت جبل عين الصفرة، التابعة لناحية بعشيقة، لذا بدأت عائلة قاسم وعائلة أخيه كاظم وباقي عوائل القرية بترك بيوتهم وممتلكاتهم متجهين صوب مكان آمن خلف الجبل محاذيا لقريتهم من الطرف الآخر.

فعلا دخل الدواعش القرية، نهبوا وسرقوا ممتلكات الأهالي الذين نزحوا مجبرين في ليلة ظلماء، ولم يبق شيء ثمين إلا وأخذوه كعادتهم، ولو استطاعوا لأخذوا البيوت بجدرانها... لكن عملية مباغتة من القوات الأمنية المتمركزة قرب القرية تمكنت من تحريرها،

تحرير هذه القرية الحيوية التي استقرت منذ زمن بعيد أسفل سفح جبل عين الصفرة.

- كانت فرحة (قاسم) وأخيه (كاظم) وأبنائهما كبيرة بلحظة التحرير السريعة بأقل من شهر إذ تحررت القرية تحديدا يوم الجمعة الموافق ٥ ٩ ٢٠١٤، كما كانت فرحة أبناء القرية الذين لم يصدقوا هذه الأخبار إلا بمشاهدة بيوتهم وأراضيهم، لذا قرر (قاسم وكاظم) مع ابنائهما زيارة القرية وتفقد بيوتهم وممتلكاتهم فيها.

كانت رحلة تفقد القرية طويلة بالنسبة لهم مع أنهم لم يكونوا بعيدين عنها؛ إذ نزحوا إلى إحدى القرى الكردية خلف جبل عين الصفرة وهي قرية بردرش، إذ كانوا على قمة الجبل يرون قريتهم وبعشيقة والقرى الأخرى التابعة لها، حتى أنهم شاهدوا اشجار منطقة الشلالات المحاذية لمدينة الموصل. كانت فرحتهم برؤية هذه الأماكن فرحة عارمة كأن الحياة ابتسمت لهم من جديد؛ وتدفقت عليهم جميعا صور الذكريات: ذكريات عيشهم في بيوتهم التي كانت مصدرا أساسيا من مصادر الأمن والأمان والألفة، وذكريات لعبهم مع أبناء الجيران في أزقة القرية، وذكريات عملهم في زراعة الخضروات والفواكه التي تزرع

بشكل ديمي فضلا عن هذا وذاك ذكرياتهم وهم ذاهبون إلى الموصل لبيع منتجاتهم في علوة الخضروات والفواكه، وبعد عناء ذلك اليوم تكون استراحتهم في احد مطاعم الموصل لتناول الغداء، وفي اغلب الاحيان يكون الغداء من المشويات ولاسيما الكباب، وعند خروجهم من القرية فجرا يكون فطورهم إما تشريب أو باجة في منطقة الفيصلية في مدينة الموصل. مع تلك الذكريات بدأت دموع الفرح تنساب على وجوههم وهم يقتربون من بيوتهم المترامية على أطراف القرية.

اتجه كل من قاسم وابنه هاني وكاظم وابنه علي إلى بيت قاسم، وجدوا البيت فارغا ليس فيه إلا بقايا طعام كان الدواعش يأكلونه، وبعض الحاجيات والأغراض المتكسرة مبعثرة هنا وهناك. خرجوا جميعا من البيت بعدما أغلق قاسم باب بيته الخارجي الكبير المصبوغ بلون الأحمر القاني متجهين نحو بيت كاظم الذي يبعد مسافة أمتار قليلة عن بيته.

كان في مقدمتهم هاني وعلي يسيران جنبا إلى جنب في حين قاسم وكاظم يسيران خلفهما ويؤشران باتجاه بعض البيوت التي قد تضررت جراء العمليات العسكرية عند انسحاب الدواعش من القرية. بين حين واخر يقفان كل من الأخين» قاسم وكاظم) حتى

اصبحت هناك مسافة كبيرة بينهما وبين الولدين)هاني وعلي).

كان أول الداخلين إلى بيت كاظم (هاني) ثم دخل (علي)، ومن بعدهما دخل كل من (قاسم وكاظم) الذي تأخر عن الدخول إلى غرف البيت، وبدأ يستطلع باحة المنزل التي فيها برميل نفط مغطى بغطاء من الألمنيوم الرقيق، ومن ثم اتجه (كاظم) نحو الحديقة التي في وسطها شجرة زيتون عملاقة محملة بثمار الزيتون الأخضر من النوع المحلي المتشابكة الأغصان، والتي غطت ظلالها مساحة واسعة من الحديقة، وقف كاظم في الظل وبدأ ينظر للأعلى متأملا تلك الاغصان المتشابكة التي تلمع فيها ثمار الزيتون الخضراء جراء سقوط اشعة الشمس القوية.

في هذه الاثناء فتح (هاني) باب البيت الداخلي وخلفه والده قاسم، في حين وقف (علي) ينظر من شباك المطبخ إلى داخل البيت، وخلفه على بعد أمتار برميل النفط، وظل كاظم ساهما يتأمل اغصان الزيتون المتشابكة والتي بينها تلمع حبات ثمر الزيتون.

دخل هاني وسط البيت في غرفة الاستقبال لم ير شيئا فيها؛ فقد كانت الغرفة فارغة تماما إلا من آثار أثاث البيت الموجودة على أرض الغرفة الاسمنتي، حيث قطع الكارتون التي توضع تحت أرجل

الارائك فضلا عن بعض الاتربة والاوساخ المتجمعة خلف تلك الأرائك. استدار نحو جهة اليسار باتجاه باب الغرفة الأخرى، وضع يده على مقبض الألمنيوم للباب الخشبي. مع فتح الباب صدر صوتا مدويا جراء انفجار ثلاث صواريخ مربوطة بسلك مع الباب.

استشهد (هاني) جرّاء شظايا الصواريخ المخلوطة بقطع خشبية كأنها سكاكين انغرزت في كل انحاء جسده المسجى على الأرض في حين طارت جثة)علي) مسافة عشرة أمتار تقريبا، وارتطمت ببرميل النفط، وسرعان ما انسكب النفط على الأرض مخلفا نارًا هائلة جراء توالي الأنفجارات المنبعثة من الصواريخ، وبدأت جثة الشهيد (علي) تحترق، أما (قاسم) الموجود في غرفة الاستقبال فقد نالته بعض الشظايا، وسقط أرضا أسعفه الناجي الوحيد من الحادث أخوه (كاظم) راكضا به نحو أقرب مستشفى؛ إذ أصيب بالعمى، وظل يتذكر ذهابه إلى الموصل لبيع منتجاتهم من الخضروات والفواكه، وظلَّ يروي تلك الذكريات الجميلة لكل من يجلس معه لاعنًا كل من دنس أراضي مدينة الأنبياء.

مأساة عالِم

أثار الأستاذ المساعد د.عبدالله الجبوري اهتمام طلبته منذ أول محاضرة القاها عليهم في علوم الفيزياء النووية بجامعة تكريت؛ فهو يؤكد مرارًا وتكرارًا بأن العلم الذي لا يراعي القيم الإنسانية، لا يعد علما، ويسرد على مسامعهم الحكايات تلو الحكايات في كل خمس أو عشر دقائق من بداية كل محاضرة من محاضراته؛ لأنه يعد هذا هو أساس العلم الذي بُنِي على الفضيلة وعلى الأخلاق الحميدة، وكان يكرر في تلك الحكايات عبارة مفادها:

كم من جرائم تُرتكب باسم العلم أو باسم الوطنية أو باسم الدين، والتاريخ مليء بشواهد على ذلك.

كانت هذه الحكايات تستهوي الطلبة أكثر ما تستهويهم عبارات عن تجارب حاسمة بخصوص اكتشاف الأنشطار في الذرة، وفكرتها الأساسية هي (أن النيوترونات طالما هي التي تسهل عملية الأنشطار ومن ثم تنتج عنها، فمن الممكن حدوث سلسلة من الأنشطارات

النيوترونات الثانوية المتولدة عن الأنشطار ستستمر في بدء عمليات انشطار أكثر، وهذه ستحرر المزيد من النيوترونات، التي ستتسبب عندها في انشطارات أخرى وهكذا دواليك..).

إذ انسحبت هذه الافكار على حياته اليومية؛ فهو تراه يساعد الكبير والصغير كما يساعد الفقير الذي لديه عفة نفس من خلال اختراعه لأساليب مساعدة تحافظ على ماء وجه هذا الفقير أو ذاك.

كانت النقطة الفاصلة لاختبار هذه المبادئ والقيم الإنسانية لدى د. عبدالله الجبوري هو ما حدث في مجزرة سبايكر، ومحاولة البعض النجاة عن طريق معبر تكريت باتجاه مدينة العلم(الخرجة)، المدينة التي يقطن فيها الجبوري،ولاسيما هؤلاء الجنود الذين عادوا الى معسكر سبايكر بالتزامن مع دخول داعش إلى مدينة تكريت بشكل خاص وبعض النواحي والاقضية التابعة لمحافظة صلاح الدين بشكل عام.

إذ تجمع الكثير من الناجين في بيوت العلم (الخرجة) فضلا عن ذلك تجمعت العشرات من العوائل التي نزحت من تكريت، وأرباب الاسر والعوائل الذين هم بالأساس يعملون في الدوائر الحكومية أو يعملون أعمالا خاصة في مطعم أو متجر أو بستان أو فرن ...الخ.

بعد التشاور مع وجهاء العلم (الخرجة) وأعيانها تم تشكيل لجنة لأنقاذ هؤلاء الأفراد والعوائل ومساعدتهم على عبور نهر دجلة، ومن ثم توفير السكن اللازم لهم في العلَم (الخرجة)، ومن ثم تهريبهم إلى مكان آمن لإيصالهم إلى عوائلهم والاطمئنان عليهم. قال أحد وجهاء العلم (الخرجة) :

عشائر (الخرجة) ووجهائها قررت أن يكون د. عبدالله الجبوري على رأس هذه اللجنة، وهو همزة الوصل بين كل الاطراف.

رد آخر:

أحسنتم الاختيار، والله لا يوجد أفضل من الدكتور ليكون رئيسا للجنة إنقاذ هؤلاء ومسؤول عن الاتصال بين الاطراف جميعا.

كان د. عبدالله الجبوري في قمة السعادة وهو يشرف على هذه اللجنة، ويقوم بنفسه بإعداد ذلك مع مجموعة من أبناء هذه المدينة، ولم يشتك من تعب أو إرهاق طوال مدة انقاذه لهؤلاء الناجين، بل أصبحت بطولاته على لسان الصغير قبل الكبير حتى وصلت هذه المعلومة إلى الدواعش المسؤولين على المناطق المحتلة من محافظة صلاح الدين؛ إذ عقد قادتهم اجتماعا موسعا بخصوص ما وصل إلى مسامعهم.

قال كبيرهم:

- أولا نتأكد من هذه المعلومات التي وصلت عن طريق زرع مخبرينا في العَلَم (الخرجة)، وثانيا نتابع تحركات د.عبدالله الجبوري، وثالثاً: مراقبة بيته، وبعد ان تتجمع المعلومات والادلة التي تدينه، سنتخذ إجراءات عدّة بحقه.

أجاب آخر جالس في الاجتماع بلكنة تُدَلِّل على عدم عراقتيه:

- القصاص .. القصاص.. لا نقبل غير القصاص.

ردَّ عليه كبيرهم قائلا:

- بعد التأكد من الأدلة .. سننزل به أقصى القصاص.

أحسَّ د. عبدالله الجبوري في أحد الأيام وهو عائد من كركوك إلى مدينته العلم (الخرجة)، أنه مراقب، بل بعض الاشخاص الذين التقوا به كانت أسئلتهم تدلل على انتزاع معلومات منه مباشرة، ولكن بفضل حسِّه الأمني استطاع التخلص من هكذا اشخاص،ولكن ظلَّ هاجسه الأمني يعمل حتى وهو يتصفح كتابا أو مجلة مركونتين في زاوية حقيبته الجلدية، ولذا قرَّر أن يعود إلى بيته بعد التأكد من تخلصه من الذين يراقبوه. في البدء أراد العودة الى كركوك من أجل التخلص نهائيا من المراقبة والمبيت مع عائلته التي تسكن في حي العسكري عند

أقربائه، ولكنه تراجع عن قراره هذا، بعد أن تذكر بوجود العشرات من الاشخاص ينتظرون عودته لتهريبهم خارج العلم (الخرجة) باتجاه كركوك وصولا إلى مطار السليمانية الذي عن طريقه سيوصلهم إلى بغداد ومن ثمَّ إلى مناطق سكناهم في المحافظات الجنوبية.

كان بيته في العلم (الخرجة) فارغا لا يقطنه غيره، وبعد عودته من كركوك متأخرًا وضع رأسه على الوسادة ونام بسرعة لم يعهدها سابقا بسبب التعب والارهاق اللذين نالا منه. في هذه الاثناء تسللت مجموعة من الملثمين التابعين للدواعش، وبدأوا يزرعون الديناميت حول بيته وبالقرب من غرف البيت في داخل الحديقة، ثمَّ خرج الملثمون بعد تنفيذ هذه العملية.

في الصباح الباكر تناول د. عبدالله الجبوري فطوره، وتلقى عدد من المكالمات من أهالي الناجين الذين وصولوا بسلام إلى بيوتهم وعوائلهم. إذ ارتسمت الفرحة على ملامح وجهه. رمى هاتفه على المنضدة ثم سار إلى مكتبته لأخذ كتاب (العلم والقيم الإنسانية) لـ ج. برونسكي ومن ثم وضعه في الحقيبة. رنَّ هاتفه، وكالعادة، أعتقد بأنه من أحد الافراد الناجين، لكن الصوت جاء مبحوحا ليسأله:

- هل أنت في البيت؟

- نعم في البيت. من أنت؟

انقطع الاتصال، استغرب د. عبدالله من هذه المكالمة. فكر بالأمر، وقال في سرّه:

- لعل شخصا ما يحتاجني.

رفع الحقيبة، ومن ثمَّ مشى في وسط غرفة الاستقبال متذكرًا ما حدث أمس. توقف قليلا متسائلا:

- هل يعقل أنهم يريدون اعتقالي؟

اتجه نحو باب البيت؛ وإذ بأصوات قذائف (أر بي جي سفن) تنهال على البيت، وتنفجر مع انفجارات للديناميت في حديقة البيت، وفي لحظة تحول البيت إلى كتلة نار، استطاع د. عبدالله أن يخرج، وقد بدت على وجهه آثار الحروق،والحقيبة مازالت بيده، لكن قناصا من بعيد أطلق النار عليه ليسقط الدكتور عبدالله، وتسقط معه الحقيبة ويقع كتاب (العلم والقيم الإنسانية) في الوحل.

محنة أب

منهج التكفير الذي أسسته عصابات داعش بعد احتلال أجزاء كبيرة من العراق نال من المجتمع العراقي عمومًا،ومن أبناء المناطق المحتلة على وجه الخصوص. وأصبح أغلب الناس بنظرهم كفارًا ومرتدين،وكانت التُهم التي يطلقونها جاهزة فالشرطي عميل للحكومة،وعمل المحامي والقاضي يُعد مخالفا لشرعهم، وهذا صحفي يعمل في صحف الحكومة أو ينادي بالديمقراطية، وهذا مسيحي لا ينصاع لقانونهم، وتلك طائفة لا تمت للإسلام بشيء، فقاموا بسبيّ النساء باسم الدين والدين بريء منهم، وحتى رجال الدين المعتدلين الذين لا يؤمنون بالتطرف ولم ينصاعوا لهم أو يبايعونهم فهم ليسوا على ملّتهم، وكل من يخالفهم بأي شيء هو مرتد وكافر.

في ظلِّ ظروف كهذه حاول أخوين من الشرقاط الهروب من ظلم داعش عن طريق الشرقاط – السكة أي عن طريق البرية كما

يطلق عليها أبناء الشرقاط؛ لكي يلتحقوا بوحداتهم العسكرية. كانت أمارات الخوف على محياهما، بل كانت نظراتهم القلقة تشي بشيء ما لأبسط شخص يراقبهما ولاسيما بعد أن أكد السائق الذي سيهربهما بأنه ليس مسؤولا عن حياتهما، بل هو يحاول بكل الطرق المتاحة إيصالهما إلى المكان الذي يريدانه.

في الطريق ومع غروب الشمس توقفت السيارة التي تقلهما، أوقفتهم مفرزة أمنية للدواعش، ومن أول سؤال سألهم إياه الذي يقف في نقطة التفتيش ارتبكا،ولم يستطيعا الرد، أنزلهما أفراد المفرزة، وسار السائق يكمل مشواره.

بعد تحقيق من المفرزة التي انزلتهما لم يستطيعوا الحصول على معلومات كافية؛ إذ كانا بدون وثائق رسمية، وفي هذه الحالة أحالتهما المفرزة إلى المفرزة الأمنية الخاصة بمنطقة الشرقاط، في البدء لم يحصلوا على معلومات تذكر، ولكن بعد عرضهما على المخبرين الملثمين من أهالي الشرقاط، تعرفوا على هويتهما الحقيقية،فهما منتسبان في الجيش العراقي، وأرادا الهرب من الدولة الإسلامية المزعومة، فبدأ الدواعش باستخدام كل فنون التعذيب وأساليبه مع المرتدين حسب زعمهم.

وأخيراً إعترفا ووقعا على اعتراف مكتوب مسبقا،وهذا الاعتراف

وضع أمام القاضي الخاص بهم،وفي ضوء تلك الاعترافات،قرر القاضي اعدامهما أمام الناس ليكونا عبرة لأهالي الشرقاط .

علم الأب بما حصل لولديه. قام بالتوسط عند بعض الناس من أجل رؤيتهما على أقل تقدير، وكانت الإجابة منهم:

- المرتدون غير مشمولين بالرحمة والرأفة.

قال الأب:

- أنا شيخ كبير فقط أريد أن أكحل عيني برؤية ولديَّ.

رد الحارس على باب المحكمة:

- القاضي منع أي زيارة لولديك.
- هل ممكن رؤيته؟

كان الحارس قد استكان لعاطفته وقال له:

- قف هناك بعيدًا وعند خروجه سأعطي لك اشارة، لتتقدم وتكلمه بخصوص ولديك.
- بارك الله فيك .

جلس الأب القرفصاء، وأخرج كيس الدخان ولفَّ سيكَارة وأشعلها. انتبه له الحارس وهرع اليه قائلا:

- ماذا تفعل؟ ألا تعلم أن التدخين حرام. والله سيجلدك

القاضي إذا علم بالأمر.

- يا رجل الناس بمصيبة واحدة لا تستطيع ترك الدخان. كيف أنا بمصيبتين؟ وأنا منذ وعيت على هذه الدنيا أدخن، يعني صار لي أكثر من ستين سنة أدخن. معقولة اترك التدخين بهذه السهولة.
- اذهب يا رجل إلى مكان بعيد عن أعين الناس للتخلص من العقوبة.. أتدري إذ رأف بحالك القاضي سيغرمك مبلغا كبيرا يقصم ظهرك. أسمع نصيحتي واذهب إلى مكان فيه خلوة بعيد عن الناس، وأؤكد لك أن القاضي لن يخرج قبل ساعة من هذا المكان.

قابل الأب القاضي بعد مدّة وجيزة، ولم تنفع توسلاته، بل أكد له بأن رائحة الدخان الصادرة منه يعاقب عليها قانون الدولة ... ولكنه راعى كبر سنه وأعفاه.

تم نصب مشنقتين في (فلكة بعاجة) داخل الشرقاط، وقامت المفارز الأمنية بتبليغ الأب وأهالي الشرقاط لحضور تنفيذ الاعدام صباحا، وحضرت مفرزة من الدواعش حاملين رشاشات كلاشنكوف و بي كي سي لتنفيذ العملية.

تجمهر الناس على شكل حلقة غير كاملة، والأب في وسط المتجمهرين، ودموعه تنهمر بغزارة على لحيته الخفيفة. جاءت إحدى سيارات المفرزة فنزل منها الاخوان وهما يرتديان زي الاعدام باللون البرتقالي القريب من لون الدم.،وتمَّ صُلبا على عمودين في وسط (فلكة بعاجة). تلا القاضي اللاشرعي نص بيان الاعدام، وأسبابه ومبرراته كما يدعون. ثم بدأوا تنفيذ الاعدام بتوجيه الرصاص على جسديهما اللذين يرتجفان خوفا ورهبة.

بعد تنفيذ عملية الاعدام أكد القاضي للحاضرين:

- ممنوع انزال جثتي المرتدين من العمود ليكونا عبرة لمن أعتبر.

سقط الأب مغشيا عليه بعد مشاهدته تنفيذ عملية الاعدام، وقام جمع من الناس برشه بالماء كي يستفيق. انفضَّ الجمع ولم يبق معه سوى بعض الناس يواسونه ثم أخذوه إلى البيت.

في الليل مشى الأب وبيده عصا متجها إلى مكان الاعدام. كانت الكلاب تنبح بهستيريا غير طبيعية قرب مكان الاعدام بسبب رائحة الدم الغزيرة التي سالت على الأرض، وحاولت تلك الكلاب تسلق العمودين لنهش الجثتين لكن الأب وهو يذرف الدموع يهشها ويبعدها عن الجثتين بعصاه.

في الصباح الباكر شاهد المارة عبر هذه الفلكة (فلكة البعاجة) الأب ساقطًا على الأرض وملطخا بدماء ولديه بينما الكلاب تحوم حوله وهو رافع عصاه.

محاولة أخيرة

من يعمل في وظيفة ما عليه تحمل تبعات ذلك، ولاسيما عندما يكون في موقع المسؤولية مثلي لكوني مديرًا لدائرة الآبار في الرطبة، وعضو مجلس محلي سابق؛ لذلك تعرضت إلى الكثير من الضغوطات من الأصدقاء والمعارف بل حتى الجيران، وكان أغلب الذين يتوسطون لدي يريدون أن أنجز معاملاتهم على حساب المصلحة العامة؛ فهم يريدون أن يغلّبوا المصلحة الخاصة من خلال دفع الرشاوي، وقد رفضت كل هذه الاغراءات، والسبب الرئيس لذلك لأنني تتلمذت على يد أناس مخلصين بعملهم ويطبقون التعليمات والقوانين حتى لو على أنفسهم أو على أقرب أقربائهم.

نعم ان العشائر في مناطقنا لها دور كبير في مجريات الحياة، ولكن عند العمل الوظيفي لابد للقانون من أن يأخذ مجراه، ولا أخاف لومة لائم. أحدهم هو جاري واسمه (شاكر وهيب) يسكن في الحيّ الذي أسكن فيه، طلب مني ذات يوم أن أوافق على حفر بئر في أرض

عائدة له ليحولها بستانا، علما أن هناك بئر في أرض مجاورة له لا تبعد سوى ٥٠٠ متر عن مكان حفره للبئر الجديد، وطبعا طلبه كان مخالفا للتعليمات النافذة والقوانين المعمول بها، وطلبت منه أن ينقل حفر البئر إلى نهاية أرضه التي تبعد عن البئر أكثر من ألف متر، لكنه لم يوافق لأن الحفر يكلفه سعرًا مضاعفا لذلك ظهرت على وجهه علامات عدم الارتياح؛ ولاسيما من الآراء التي ناقشته فيها بخصوص الدين والمسائل الحياتية والمعاملات الاقتصادية.

ذهب لأكثر من شخص متزمت بآرائه وعلى شاكلته للتوسط عندي، لكن رسالتي كانت:

- ليس من طبيعة (محمد نوري تبهان) أن يخالف التعليمات الواضحة والصريحة والقوانين مهما حدث أو سيحدث.

بدأت المؤامرات تُحاك ضدي فقد تعرضت إلى العديد من محاولات الاغتيال ولاسيما بعد انتشار القاعدة في المناطق الغربية، وكانت كل المؤشرات تشير إلى أن شاكر وهيب هذا كان يسير على هذا النهج التكفيري والتفنن في استخدام أساليب القتل لكل من يخالفهم الرأي.

ومع كل هذه المحاولات التي تعرضت لها بقيت على المبادئ

التي تربيت عليها ولم تزحزحني الضغوط قيد أنملة، وأن المؤشرات كلها كانت تؤكد أيضا ضلوع جاري (شاكر وهيب) بهذه المحاولات التي كادت تقتلني، ولكن في الحقيقة لم أحصل على مستمسك يدينه أو دليل واضح على ضلوعه بتلك الاغتيالات.

أول تلك المحاولات كانت بعد رفضي اعطاء موافقة على حفر البئر لأرض(شاكر وهيب) مباشرة، في اليوم الثاني كنت مشغولا جدا في الدائرة؛ إذ كانت ملفات كثيرة من البريد القادم من الدائرة الرئيسة في بغداد حتى أصبحت محاطا بها، وبالكاد يراني القادم من الخارج؛ فقد أصبحت تلك الملفات كالتلال جاثمة على مكتبي .وأثناء زحمة العمل وانشغالي بتوقيع البريد، طلب مني عامل الخدمة اعطاءه مفتاح سيارتي لملء خزان الوقود بالبنزين؛ فقد كانت هناك أزمة وقود في المنطقة بسبب تهريبه إلى خارج البلاد، وشكرته على هذه المبادرة بعد تسليمه مفاتيح السيارة. خرج عامل الخدمة من مكتبي باتجاه باب الدائرة التي ركنت سيارتي قربه.

بالكاد سمعت صوت تشغيل محرك السيارة حتى جاءني عصف انفجارها بحيث طارت الملفات من أمامي مع ارتطامي بحائط المكتب جرّاء العصف الكبير، وبعد ذلك لم أشعر بشيء، بل فتحت

عيني، وأنا أرى كل ما حولي كالضباب: أرى الاشخاص أمامي في المستشفى أشباحًا، وأسمع الأصوات كطنين، وقد لازمتني هذه الحالة أياما ثمَّ تحسنت حالتي، وعدت إلى عملي، وبعد ذلك علمت بأن عامل الخدمة قد أستشهد بعد أن تفحمت جثته جرّاء احتراق السيارة بالكامل.

** ** **

كنت كعادتي أتفقد مزرعتي بين مدّة وأخرى حسب أوقات فراغي، وفي حالة انشغالي بمسائل أخرى كنت أرسل إبني إلى المزرعة ليتفقدها بدلا عني. وذات يوم رجع ابني من المزرعة والرعب بادٍ على ملامحه. قلت له:

- ما بك (يا وليدي)؟

أجاب بوجه شاحب:

- لاحظت أن هناك من يتبعني بسيارة نوع (فيكترا)، وأنا ذاهب إلى المزرعة، وعند عودتي لاحظت مرّة أخرى السيارة نفسها تتبعني. وقفت فورًا قرب أقرب دكان صادفني بحجة شراء شيء ما وبدأت أراقبه. كان فعلا يتربص بي،وتأكدت من ذلك عندما كان يرمقني بنظراته وأنا واقف مع صاحب

الدكان. نظراته كانت غريبة، ثم سار ببطء ووقف عند ناصية الشارع ينتظرني هناك. طلبت من صاحب الدكان تفقد وترتيب بضاعته التي رصها على الرصيف ليتأكد من وجود سيارة (فيكترا) أم أنها غادرت المكان.

- أي (وليدي) وبعد ماذا حدث؟
- أكد لي صاحب الدكان بوجود السيارة على ناصية الشارع، وكأن من فيها كأنه ينتظر مغادرتي.

وأشار لي صاحب الدكان المكوث عنده، أطول وقت ممكن حتى تغادر السيارة، ومن ثم أرجع الى البيت. فكرت في بادئ الأمر أن أطلب الشرطة لإنقاذي لكن صاحب الدكان طلب مني التريث لعل من يراقبه يصيبه الملل ويغادر المكان، وبالفعل حصل هذا، وغادرت الدكان وأنا أتجول في شوارع المدينة كي يفقد أثري إن كان مازال يتبعني.

- أنا المطلوب من هذه المراقبة يا ابني، وعندما لاحظ صغر سنك ترك المكان.
- بابا لابد من إبلاغ الشرطة .
- ابلاغ الشرطة لن يجدي نفعا بدون دليل قاطع يا ابني .

طلب مني أبني أن أوصله إلى المدرسة لأنَّه تأخر كثيرًا، ولديه امتحان في الدرس الأول، فعلا أخرجت السيارة من كراج البيت متجها إلى المدرسة، والتي هي بعيدة كثيرًا عن منزلنا، وطلب ابني أن أتخذ أقصر طريق للوصول إلى المدرسة، ولكن ليس أمامي سوى طريق واحد لكنه مليء بالحفريات والمطبات، ولأول مرة أقود السيارة بسرعة أعلى من المعتاد، وعند وصولي إلى مطبٍ عالٍ جدا حاولت أن أخفف السرعة لكن هيهات ..هيهات ؛فقد اجتزت المطب بسرعة غير طبيعية كادت أن تنقلب السيارة، ولكن لطف الله أنقذني وانقذ ابني، لكنني سمعت شيئا ارتطم بالمطب. أوقفت السيارة نزلت منها نظرت باتجاه المطب رأيت عبوة قد سقطت من سيارتي، طلبت من إبني السير مسرعا على الاقدام إلى المدرسة لقربها من مكان الحادث. تجمع الناس حولي لكني طلبت منهم الابتعاد لوجود عبوة. اتصلت بالجهات المعنية (الدفاع المدني، والشرطة)الذين وصلوا بسرعة وقاموا بتفكيك العبوة، في حين قال لي مدير شرطة الرطبة :

- أنت مدير دائرة الآبار، وحتما كنت مستهدفا. هل تتهم أحدًا؟
- نعم أتهم جاري (شاكر وهيب)؛ فأنا بفضل الله قد نجوت

من عشر محاولات اغتيال أو أكثر.. أتمنى أن تكون هذه المحاولة الأخيرة لاغتيالي..

- الحق بنا سنذهب إلى مركز الشرطة لندون أقوالك
- تمام، سألحق بكم ان شاء الله.

في منتصف الليل قامت قوة من أفراد الشرطة بمداهمة بيت (شاكر وهيب) والقاء القبض عليه بعد تفتيش منزله؛ إذ عثرت على مخبأ سري فيه عدد كبير من العبوات الناسفة، وعثروا كذلك على مسدسات متنوعة كاتمة الصوت، وفي وقت شاع فيه أن (شاكر وهيب) وجماعته – الذين هم من تنظيم القاعدة، قد اغتالوا نخبة من رؤساء ووجهاء الرطبة

المحتويات

حدث في آمرلي ١
اغتيال أبرياء ٩
اللحظة الحرجة ١٥
شجاعة الخلاص ٢٢
تمرد جماعي ٢٨
هجوم مباغت ٣٤
مجزرة في مدينة البرتقال ٤٠
نقطة انقلاب ٤٦
هاربون من الجحيم ٥٤
متوالية التحريم ٦٢
رائحة الموت ٦٨
ذاكرة حفار القبور ٧٦
الخالة أم حسين ٨٣
القناص ٩٠
مغامرة الأبناء ٩٦
عودة ١٠٥
مأساة عالِم ١١٠
محنة أب ١١٦
محاولة أخيرة ١٢٢